

دكتور
السيد حنفي عوض
كلية الآداب - جامعة الزقازيق

النوبة ومجتمع التعاون

دراسة سوسيو أنثروبولوجية
في
دار السلام النوبية
محافظة أسوان

الناشر
مكتبة نهضة الشرق
جامعة القاهرة
١٩٨٤

دكتور
السيد حنفي عوض
كلية الآداب - جامعة الزقازيق

النوبة ومجتمع التعاون

دراسة سوسيو أنثروبولوجية
في
دار السلام النوبية
محافظة أسوان

الناشر
مكتبة نهضة الشرق
جامعة القاهرة
١٩٨٤

المطبعة التجارية الحديثة
٢٢ شارع ادريس راغب بالظاهر
تليفون ٩٠٣٢٦٤ القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي
مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

(سورة يونس - آية ٢٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

رب يسر ولا تعسر رب تمم بالخير

[illegible]

([illegible])

المحتـــويات

صفحة

مقـدمة المـؤلف ٧

الجـزء الأول

الدراسـة النظـرية

الفصـــــل الأول :

النوبيون ومسيرة الحضارة المصرية ١٣

الفصـــــل الثانى :

النوبيون بين الهجـــرة والتهجـــير ٣٧

الجـزء الثانى

مدخـــل للدراســـة الميدانيـــة ٤٣

الفصـــــل الثالث :

مجتمـع قرية دار الســلام النوبيـــة ٤٩

الفصـــــل الرابع :

المزارع التعاونية . المجالات النظرية والتطبيقية ، وتجربة
مزرعة دار الســـلام النوبيـــة ٦٦

مقدمة المؤلف

حاول كثير من الفلاسفة والمصلحين الاجتماعيين وأصحاب العقائد الدينية والمذاهب السياسية ، أن يشكلوا مجتمعا مثاليا ، يعتمد على الانتاج التعاونى ، كنموذج لتصورهم الذى يستهدف سعادة البشر ، وبالرغم من أن هذه المحاولات لم تحقق أهدافها ، الا أنها اسفرت عن قيمة علمية ، أسهمت فى تراث الفكر الانسانى .

وفى مصر قامت تجربة المزرعة التعاونية ، بقرية دار السلام النوبية ، بجهود تعاون جماعة من النوبيين ، استطاعوا أن يقدموا نموذجا فريدا للعمل التعاونى ، لفت أنظار المتخصصين فى مجالات علم الاجتماع والانثروبولوجيا والاقتصاد الزراعى . كما استطاعت العلاقات العامة بمحافظة أسوان أن تجعل من هذه التجربة شواهد للوفود الزائرة لها من المصرين والأجانب على حد سواء .

والواقع أن هذه التجربة لم تأت من فراغ ، وانما جاءت نتيجة تحديات فرضتها ظروف اجتماعية قاهرة ، أدت الى هجرات جماعات من النوبيين مع بداية انشاء خزان أسوان وتعليته ، واختار هؤلاء أرضا لأنفسهم يقيمون عليها مساكنهم ومزرعتهم التعاونية .

بعد ذلك اتسعت عمليات التهجير للنوبيين بشكل جماعى مع بناء السد العالى . ومع ذلك ظلت جماعات منهم متمسكة بالأرض التى عاشت عليها حضارتهم عبر آلاف السنين ، فارتفعوا

بمساكنهم على هضاب الجزر(*) بين ميـاه الخزان والسد العالى ، يعيشون على الذكريات وهامش الحياة ، لا يملكون لواقعهم غير الأمل فى عون الدولة من الخدمات الضرورية لمعيشتهم •

والدراسة التى بين أيـدينا دراسـة سوسيوانثروبولوجية ، حول قرية دار السـلام النوبية ومزرعتها التعـاونية ، الواقعة بالقرب من مدينـة أسـوان •

وقـد يلاحظ القـارىء أننى أضفيت على الجـزء الأول من هذه الدراسة الطابع التاريخى والأثرى ، والحقيقة أن هذا الطابع هو بمثابة معطيات أجدها ملائمة لهذه الدراسة • فالتاريخ وعلم الاجتماع كلاهما ينظر الى التغيرات التى حدثت فى مسيرة الحضارة الانسانية على أساس أنها أهداف لمحاولات انسانية للسيطرة على الأحداث ، وتنظيمها ، وهذا يتطلب أن نحـول اهتمامنا فى الدراسـات التاريخيـة من الماضى الى الحاضر ، ومنه الى المستقبل ، لكى نصل الى الخط العام لمسيرة المجتمع • أمـا بالنسـبة لمعطيـات عـلم الآثار بالنسـبة للاجتمـاعيين والأنثروبولوجين ، فان هـذا العـلم يستطيع ان يقـدم من خـلال اكتشافاته ، بصفة عامة ، تفسيرا للحقـائق حـول الجـزء التاريخى للمـاضى الذى لم تتعرض له السجلات المكتوبة •

بعـد ذلك يبقى لى أن أقول ، أن طبيعـة دراستى تفرض على

(*) تقع هذه الجزر امام معبد فيلة ، ومعظم سكانها من الكنوز وهى : هيسة (١٤٢٤) نسمة ، بيجا (١٧٣) نسمة ، عواض (٤٦٦) نسـمة ، الشـلال (٧٦٥) نسمة . انظر : التعداد السـكانى لجـزر الخـزان ، التخطيط الاقليمى بأسوان (١٩٧٦) .

أما الأهمية التاريخية لهذه الجزر وخاصة جزيرة هيسة . فكانت مقرا لمدافن الكهنة والكاهنات الذين كانوا يعملون فى معبد فيلة،والملاحظ ان القيمة الاثرية لهذه الجزيرة قد تـلاشت بعـد نقل الموميـاء الى متحف جـزيرة الفنتين فى مواجهة مدينة أسوان . انظر :

Leslie Greener., High Dam Over Nubia, Shenval Press, London., 1962. P. 22.

الاستفادة من هـذه المعطيـات ، طالما أن هـذه المعطيات قادرة على اثراء الدراسة بالجذور التاريخية لطبيعة الحيـاة الاجتماعية لهـذا المجتمـع ، الذى ينفرد بمظـاهر ثقافيـة عن باقى الجمـاعات التى يعيش بينهـا •

ومن السمات الأساسية لمظاهر الثقافة للنوبيين ، تلك التى ينفردون بها عن غيرهم ، أنهم قد استمدوها بالميراث من أجيالهم السابقة،ومازالوا يحافظون عليها ليورثوها لأجيالهم اللاحقـة ، بشتى أساليب التربية •

اما تجربة المزرعة التعاونية فقـد هيـأت لى المجـال الفكـرى لبعث الأمل من جـديد فى الاستعانة بأفكار الرومانسيين حـول المزارع التعاونية والمجتمع الطوبائى •

ولا شك ان هناك تجـارب للمزارع التعاونية سابقـة على تجربة قرية دار السـلام النوبية ولكنها باءت بالفشل ، نتيجة اعتمـادها على جهود فردية وتجاهل مشاركة الجماعات المستهدفة •

والدراسة موضوع البحث تنقسم الى جزئين رئيسيين ، أولهمـا نظرى ، وثانيهما ميدانى •

الجزء النظرى : ويحتوى على الفصل الأول ، الذى يتناول الجـذور التاريخية لمجتمع النوبة ، وعلاقته بمسيرة الحضارة المصرية • والفصل الثانى ، يتناول العوامل التى أدت الى هجرات النوبيين وتهجيرهم من أرضهم •

الجزء الميدانى : ويحتوى على الفصل الثالث ، الذى يدرس طبيعـة الحيـاة الاجتماعية للمجتمع المحلى بقرية دار السلام

النوبية • والفصل الرابع ، يتناول المجالات النظرية والتطبيقية ، حـول المزارع التعاونيـة ، ثم تجربة المزرعة التعاونية فى قرية دار السلام النوبية •

وبعد ، فاننى أرجو أن يكون فى هـذا البحث ، ما يسهم بالافادة فى مجـال العلم ، وما ينتفع به فى محيط المجتمع •

والله ولى التوفيق

د• السيد حنفى عوض

٥ ينـاير ١٩٨٤

الجزء الأول

الدراسة النظرية

الفصل الأول

النوبيون ومسيرة الحضارة المصرية

ينظر علماء التاريخ اليوم ، الى أهمية التطور الذى حدث فى أساليب البحث التاريخى وتطبيقاته على الشئون الانسانية ، ومن الموضوعات التى حظيت باهتمامهم ، عنايتهم بمنهج البحث التاريخى ، والتحليل النقدى لتفسير تاريخ الحياة الانسانية فى ضوء المصادر التاريخية المكتوبة التى تحتوى على قصص الأحداث • الا أن الجديد فى هذا الشأن ، أنهم تناولوا تطبيق هذا المنهج على المادة غير المكتوبة التى أحتوتها أعمال الأثريين(١) •

وفى الحقيقة ان البحث التاريخى مازال هو الطريق الوحيد الذى يمكن من خلاله معرفة عقلية شخص ما ، أو جماعة من الجماعات ، أو عصر من العصور •

وفى ضوء هذه المعانى أستطيع القول ، أن النتائج التى أسفرت عنها الدراسات حول جماعات النوبيين حديثا ، يرجع الفضل فيها الى تعاون علماء الآثار والتشريح والأنثروبولوجيا والتاريخ ، فقد استطاعوا بتعاونهم ان يضعوا حدا للآراء المتناقضة حول أصولهم ومراحل علاقاتهم بالحضارة المصرية •

ولا شك أن المعرفة التاريخية ، معرفة تحيط بما فعله العقل البشرى فى الماضى ، ثم هى فى نفس الوقت ــ أى المعرفة ــ عودة بصورة هذه الأفعال أمام الحاضر ، وقد تكون أحيانا استمرارا فى شكل

---

(١) Colling, R. G., The Idea of History, Agalaxy Book, New York., 1957. P. 210.

مظـاهر ثقافيـة تعيش داخـل نسيج الحيـاة الاجتماعيـة لمجتمـع الحـاضر(١) .

النوبة والنوبيون :

أطلق اسم « النوبة » على المنـاطق التى تقـع الى الجنوب من أسوان حتى الشلال الرابع ، ويعـد هـذا الاسم حديثا فى استعماله ، لأنه لم يذكر الا فى العصور المتـأخرة(٢) .

ويذهب « ولتر ب. امـرى Walter B. Emery » الى تحـديد معنى « النوبة » الى أنها جاءت من كلمـة « نوب ــ (Nub) » التى تعنى عند المصريين القـدماء كلمـة « الذهب » . وكانت منطقـة النوبة تعـرف عندهم ببـلاد الذهب .

ومن بين الأسماء الكثيرة التى أطلقها المصريون القدماء على النوبة « تا ــ كنس Ta-Kens » أى الأرض المقوسـة ، أو الأرض المقدسة ، ولم يكن هـذا الاسـم الا مجرد تعبيرا عاما ــ الا ان الاسم الأكثر شـيوعا كان تاستى ــ أى بـلاد حاملى الأقواس ــ ويعد المصريون القـدماء أول من صـنفوا النوبيين الى فئتين حسب مجـال أقامتهـم جغرافيا ، فأصبح عندهم النوبة السفلى ، والنوبة العليا . وسكان النوبة السفلى يطلق عليهـم « واوات (Wawat) » ومنطقتهم الجغرافيـة بين الجندل الأول والجندل الثانى ، أما سكان النوبة العليـا فيطلق عليهم « كوش (Kush) » وتقـع منطقتهم جغرافيـا جنوبى الجندل الثانى . وفى ضـوء ما أسفرت عنه حفائر الآثريين يمكن القول أن أهل « واوات وكوش » كانوا من جنسين مختلفين مـع أن بينهما قرابة(٣) .

---

(١) Ibid., P. 218.

(٢) عبد المنعم أبو بكر : بـلاد النوبة . وزارة الثقافة والارشـاد القومى . سلسلة المكتبة الثقافية . العـدد ٥٨ . أول أبريل (١٩٦٢) . ص ١٤ ، ١٥ .

(٣) Walter B. Emery., Egypt in Nubia, Hutchinson & Co. Publishers, Ltd., London. 1965. P. 16.

ومـع كل هـذا فقـد ظلت مقاطعة « الفنتين » المتاخمـة لبـلاد النوبة رغم أنها كانت تابعـة لمصر سياسيا ، الا أن سـكانها ظلوا من الجنس النوبى • وكان يطلق على الاقليم أرض « ستت أو تاستت » أى « نوبية أو مقاطعة النوبيين » وكانت هذه المقاطعة عبـارة عن أسواق يتبادل فيه النوبيون منتجاتهم مـع المصريين(١) •

وفى بلاد النوبة عاشت قبائل عـدة ذكرها المصريون القدماء وهى :

١ ــ قبيلة « الواوات » وتقطن حاليا حول كورسكو •

٢ ــ قبيلة « الايرثت » وتقطن حاليـا تومـاس •

٣ ــ قبيلة « ستاو » وتقطن حاليـا توشـكا •

٤ ــ قبيلة « ايام » وتقطن بين « أرمنة ، وبوهن » حاليا •

٥ ــ قبيلة « مدجاو » وهى قبيلة من قبائل الرحل التى لم تستقر فى منطقة بعينهـا ، وكانت تجـوب مناطق النوبة السـفلى والعليا • وتنتمى هذه القبائل جميعها الى الجنس الحامى ، الذى كان ينتمى اليه سكان شمال أفريقيا جميعا فى العصور الأولى •

وأهم ما يميز هـذه السلالة ، القامة المتوسطة النحيلة ، والرأس المستطيل البارز من الخلف ، كمـا تمتـاز أيضـا بالأنوف والشـفاة المعتدلة ، والشعر المموج ، ولون البشرة الأسمر المـائل للاحمرار(٢) •

مصر والنوبـة :

لقد كانت بلاد النوبة اسهل البلاد التى يمكن الوصول اليهـا حتى مصر ، الا أنهـا لقلة خصبها لم تبلـغ مرحلة متقدمة الا فى الأزمنـة

---

(١) سليم حسن : مصر القديمة جـ ٢ مطبعـة كوثر . القـاهرة . ١٩٤٠) ص ٢٦٩ .

(٢) عبد المنعم ابو بكر : المرجع السابق . ص ١٥ ، ص ١٧ .

المتأخرة ، وتحت تأثير السـيادة المصرية • وربما كان هـذا سببا من أسباب التشـابه بين المظـاهر الحضـارية بين المصريين والنوبيين فى عصور فجر التاريخ •

لذلك أجـد أن الدراسات الأثرية (الأركيولوجية) ، مازالت هى القـادرة على تحـديد الخطوط الواضحة لمسيرة كليهما عبر الحضارة •

والواضح ان الدراسات الأركيلولوجية قد اعتمدت على محتويات المقابر ونماذجها ومواقعها ومميزاتها والأوانى الفخـارية وغيرها من الأدوات ، حيث رأت أنه لا يمكن الاعتماد على المعابد المنتشرة فى بلاد النوبة لتعرضها للهدم ، وقد أكدت المقارنة على أنه لا يوجد أختـلاف فيما بينها وبين مثيلاتها فى المـدن المصرية ، وخاصـة آثار عصـور ما قبل (الأسرات) ، فالمقـابر ومحتوياتها ومواقعها ومميزاتها التى عثر عليهـا فى بـلاد النوبة تمثل ثقافة مشابهة تماما للثقافة المصرية التى كانت سائدة فى عصور ما قبل الأسرات ، ولذلك نجـد عادات دفن الموتى والحـرف اليدوية مشابهة تماما لمثيلاتها التى عثر عليهـا فى المقـابر المصرية مما يؤكد أن النوبين والمصريين فى العصور الأولى — عصور ما قبل الأسرات — والأسرات الثلاث الاولى سلالة واحـدة ، وأن مصر وبـلاد النوبة كانت تكونان منطقة سلالية وثقافية واحدة •

وقـد دلت محتويات المقـابر التى كشف عنها فى بلاد النوبة عن حضـارة مماثلة لمـا كشف عنـه فى المقـابر المصرية المعـاصرة وحول الأسرة الأولى فقط بدأ المصريون يسبقون جيرانهـم النوبيين بخطوات سريعـة للغاية[١] ، ومما لا شك فيـه أنه كان للعوامل الطبيعية الأكثر صعوبة فى جنوب الوادى عن شماله أثره فى تخلف أولئك عن هـؤلاء ،

---

(١) ادولف ارمان وهرمان رانكة : مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة . ترجمة ومراجعة عبد المنعم بكر ومحرم كمال . مكتبـة النهضـة المصرية . القاهرة (١٩٥٢) ص ١٧ .

ونظرا لأن النوبيين لم يدونوا أحداثهم كما أنهم لم يكونوا أسرات حاكمة فقد أضطر المؤرخون الى اتباع طريقة التأريخ حسب المظاهر الحضارية ، وقسموا العصور الى مجموعات متعددة قابلوها بالدول المصرية المعاصرة (١) • وقد تطابقت المظاهر الحضارية فى مصر وبلاد النوبة فى عصور فجر التاريخ ، وقد نجد فى تقسيم وولتر امرى (٢) توضيحا لنواحى هامة ، نحاول أن نسترشد بها فى هذه الدراسة •

المجموعة الأولى :

شهدت فترة ملوك الأسرة الأولى نشاطا كبيرا فى توحيد البلاد ، وزيادة سكان النوبة ، ومع ذلك لم يستمر السلام والرخاء فى هذه الفترة طويلا • ففى عصر « حور عحا — Hor Aha » أول ملوك الأسرة الأولى نجد حوليات لانتصار المصريين فى الجنوب ، وهو ما تكشف عنه لوحة صخرية فى جبل الشيخ سليمان جنوبى « بوهين Buhen » سجل غزو الفرعون « جر Zer » الذى أعقب « حور عحا Hor Aha » وعلى أية حال فهذه اللوحة تؤكد على وجود اعتداء مصرى على أرض النوبة فى عصر مبكر •

ويؤكد « وولتر أمرى » ان الانتهاء المفاجىء لحضارة المجموعة الأولى قد حدث عند غزو النوبة فى عصر الملك « خع سخم وى Kha sekhemui » فى أواخر عصر الأسرة الثانية ، ومهما كانت الأسباب ، فقد عانى الشعب النوبى فى ذلك من مشكات الفقر • كما يذهب « وولتر أمرى » أيضا الى القول بأن الأخضاع الحقيقى للنوبة ، جاء مع الحملة التى أرسلها « سنفرو » أخر ملوك الأسرة الثالثة لاحتلال النوبة(*) ، وقد اسفرت نتائجها على أسر سبعة آلاف من الأسرى وما يقرب من مائتى الف رأس من البقر ، بالاضافة الى

(١) عبد المنعم أبو بكر : المرجع السابق . ص ١٨ .

(٢) Walter B. Emery., Op. Cit., P. 44.

(*) هناك من يذهب الى أن « سنفرو » كان أول ملوك الأسرة الرابعة . أنظر فى ذلك :

Gardener A., Egypt of Pharahs., Oxford University, London, 1976 p. 77.

سهولة استغلال ثروة البلاد المعدنية ، خاصة النحاس[1] •

المجموعة الثانية :

وهى التى عاصرت مصر فى الفتـرة الممتـدة من بـداية الأسرة الرابعـة ، وهى نهـاية عصـر الأسرة العـاشرة ، تلك التى يعتقـد « أمرى » أنه قـد تم فيها الاخضـاع الحقيقى لبـلاد النوبة على يد الملك «سنفر » •

وتتضـح هـذه الحقيقة من نص سجله الفرعون « مرن رع » من الأسرة السادسة (٢٢٥٨ — ٢٤٢٠ ق•) عند الجندل الأول ، يكشف عن حضوره الى المنطقـة ليتقبل ولاء وطاعة رؤسـاء قبائل « المدجاو » و « ارثت » و « واوات » التى كانت فى هـذه الفترة تعيش فى المناطق الشمالية من النوبة السفلى •

كان للمصريين طوال حكم « مرن رع » نشاط كبير فى النوبة تحت اشراف موظفين بارعين ، راستطاعوا ان يجمعوا جنـودا من النوبـة ضمت لجيوش الفرعون لمحـاربة قبائل الصحراء الشرقيـة ، وهـذا يعكس حقيقة سيطرة المصريين على النوبة الشمالية • ومن الأمور التى تكشف عن اهتمـامات المصريين بالنوبة قيـام « أونى » تحت حـكم « بيبى الأول » ، شق خمس قنوات فى منطقة الشـلال الصعبة للملاحة لتحسين طرق المواصـلات مـع البلاد التى تقع جنوب الجندل الأول ، والحقيقـة التى تتضـح حـول مشروعات تحسين المواصـلات كان الهـدف منها ، نقـل الجرانيت للهـرم الملكى فى « منف » • ونقـل الأخشـاب من النوبة لبنـاء السفن •

ويذهب « امرى » الى التعليق على هـذه الفترة بقوله « لم يكن وجود المصريين على أرض النوبة يأخذ شـكل السـلام بصفة دائمة ،

---

(١) Ibid., P. 125.

فلقد كانت هناك فترات تنتابها القلاقل ، كما يبدو من الحملة التى قادها « بيبى نخت » وقتل فيها عددا كبيرا منهم ، ثم أحضر حاكمى « واوات » و « ارثت » لتقديم فروض الولاء للفرعون « بيبى الثانى »(١) • ومع نهاية الأسرة السادسة ، سقطت أغنى وأقوى العروش حينذاك ، ونعنى بها الدولة القديمة ، وانقطعت الصلات التجارية بين مصر والنوبة ، خلال عصر الأنهيار الأول •

وفى أواخر فترة ذلك العصر وبدايات الدولة الوسطى ظهر بالنوبة السفلى شعب جديد ، أطلق عليه المجموعة الثالثة •

المجموعة الثالثة :

كانت الحدود الشمالية لهذه المجموعة هى قرية « كبانية » الى الشمال من كوم أمبو وحدودها الجنوبية عند موقع « فرص » وكانت الحرفة الأصلية لأهل تلك الحضارة هى رعى الابقار وغيرها من الحيوانات وتمتاز حضارتهم بالصناعات اليدوية وأهمها الفخار(٢) واستعمال أنواع متعددة من أدوات الزينة منها أساور من الذهب والعاج والخرز المنظوم وظل ذلك دليل على تقدم نسبى(٣) ، والى الجنوب من حضارة المجموعة الثالثة ظهرت المجموعة الحضارية المعاصرة لها والتى أطلق عليها حضارة « كرمة » نسبة لمركزها الرئيسى وهو قرية « كرمة » بالقرب من الشلال الثالث ، وانتشرت تلك الحضارة فى منطقة دنقلة « صاى » و « عمرة » فى الشمال ، وهى منطقة يتسع فيها السهل وتكثر فيها الخيرات الزراعية ، وأغلب الظن أن أصحاب تلك الحضارة والمنطقة المحيطة بها هم أصحاب دولة كوش فيما بعد ، وعاشت حضارتا المجموعة الثالثة وكرمة بجانب بعضهما البعض حتى دخول الهكسوس مصر •

---

(١) Ibid., PP. 131, 132.

(٢) محمد ابراهيم بكر : المدخل الى تاريخ السودان القديم . المطبعة الفنية الحديثة . القاهرة (١٩٦٨) . ص ٣٦ .

(٣) عبد المنعم أبو بكر : المرجع السابق . ص ٢١ .

وعن أصـل أصحاب الحضـارتين فقـد تفـاوتت الأراء ، ففى حين يـرى « ريزنر » أن أصـحاب المجموعـة الثالثة يمثلون شـعبا بدويا ربما يمت بصـلة قرابة لليبيين الجنوبيين ، وأن أهـل « كرمة » مجموعة استوطنت البلاد ، منذ الدولة القديمة أو قبلها ، مع الاضافة بأن كليهما لم يدخل عليه الا مسحة من العنصر الزنجى ، فان «شتايندروف» يعتبر أهـل كرمة ضمن طائفـة شعوب شمال افريقيـا مثل الليبيين ، وأن المجموعة الثالثة قـد وفـد أصحابها من منطقـة منابـع النيـل الأزرق وعطبرة أو من منطقة كردفان .

ويعتبـر « يونكـر » كليهمـا من العنصر الحامى الـذى اختلط بالزنوج ، ويؤكد أنهما قبيلتان لشعب واحـد .

ويرى « آركل » أن أصحاب المجموعة الثالثة ليبيـون جنوبيون(١) وعلى أية حـال فانه كما يذكر « امرى » أن أصلهم لايزال غير معروف وان كان يميل الى الاعتقـاد بأنهم مهاجرون من الجنوب الغـربى(٢) للحـدود المصرية .

ويذهب « بكـر » الى عوامل اخضاع أصحاب حضـارة المجموعة الثالثة الى أنها جاءت نتيجة للاغارات المتتالية على حدود مصر الجنوبية مما دفع ملوك الأسرة الحادية عشرة الى ارسال الحملات الحربية لتأمين الحـدود واخضـاع أصحاب حضـارة المجموعة الثالثة ، وربما كان فى تسجيل أسـماء بعض الملوك المصريين فى منـاطق النوبة السـفلى مثل جـرف حسين ، توماس ، ، ابريم ، توشكا « توشكى » « أبو سمبل » ما يفيدنا بوصـول حمـلات الأسرة الحـادية عشرة لتلك البقـاع ، وكـانت هـذه الحمـلات عبـارة عن حمـلات تأديبيـة للـرد على اعتـداءات النوبيين على القوافـل التجـارية المصرية وعلى عمـال المحـاجر المصريين(٣) .

---

(١) محمد ابراهيم بكر : المرجع السابق . ص ٢٨ ، ٢٩ .

(٢) Walter B. Emery., Op. Cit., P. 133.

(٣) محمد ابراهيم بكر : المرجع السابق . ص ٢٩ ، ٣٠ .

وهنـــاك نقش لأحـــد رجـــال « منتوحتب الثانى » عاهل الأسرة الحـــادية عشرة وموحد مصر بعـــد عصر الانقسام الأول يتحـــدث فيه صـــاحب النقش عن قيـــامه بجمع جنود لجيش مصر من أبنـــاء النوبة ليساهموا فى الحرب ضـــد الآسيويين • ومن نص آخر لرجل من نفس العصر يذكر أنه : عندما سافر الملك المصرى جنوبا الى « بوهن » أثناء رحلته بحرا عبر البلاد كلها ليقتل بدو « جـــاتى » الذين كانوا يمنعون قطـــع الحجـــارة(١) •

ويفهم من النبوءة التى أطلقهـــا « أمنمحات الأول » عاهل الأسرة الثانية عشرة لاعطاء حكمه الصبغة الشرعية ، أن أمه كانت نوبية ، ويشير «بكر»(٢) الى أن «منتوحتب الثانى» عاهل الأسرة الحادية عشرة كانت بشرته أميـــل للسواد •

وكانت أول مجموعة طويلة من المعـــارك بين ملوك الأسرة الثانية عشرة والنوبيين هى تلك التى قام بها الملك « امنمحات » سجلها لنا نقش قصير على صخرة بالقرب من كورسكو جـــاء فيـــه « السنة التاســـعة والعشرون للملك امنمحات الأول » ليعيش الى الأبد ، حضرنا لنطـــرد «واوات» •ويبدو أن ولى عهده وشريكه فى الحكم «سنوسرت الأول» هو الذى قاد هذه الحملة • ويرى « امرى » أنه كان لهذه الحملة هدفان ، الأول توسع استعمارى بهدف استغلال الثروة الخاصة بالمناجم والمحـــاجر وبعض المحاصيل الجنوبية ، والثانى ضرورة ابقـــاء النوبة الســـفلى كحاجز بين مصر وكوش •

ثم كانت حملات «سنوسرت الأول» على بلاد النوبة حاسمة بالنسبة لحضارة المجموعة الثالثة وقد سجل أخبـــار انتصاراته فى السنة الثامنة عشرة من حكمه على لوح فى معبد « بوهن » قائد جيشه « منتوحتب »

---

(١) Walter B. Emery., Op. Cit., P. 140.

(٢) محمد ابراهيم بكر : المرجع السابق . ص ٣٠ .

وقد صور الملك واقفا أمام اله الحرب « منتو » قائلاله « لقد أحضرت لك كل بلاد النوبة تحت قدميك أيها الاله الطيب » ثم منظر لرأس وأكتاف أسير فوق سياج بيضاوى الشكل يتوسطه اسم مدينة أو مركز مقلوب ، وقد عثر على عشرة من اسماء هذه المراكز الخاضعة نتيجة للغزو(١) وأصبحت منطقة الجندل الثالث تحت رقابة المصريين وبدأ « سنوسرت » فى تشييد الحصون والقلاع التى بلغت حسبما عرف من بردية عثر عليها فى مقبرة بالقرب من معبد « الرمسيوم » ما بين أربعة عشرة وسبعة عشر حصنا بدأ العمل فيها منذ عصر سنوسرت الأول ولكنها أكملت من بعده ، وكان الهدف منها تأمين الحدود وتسهيل سبيل المرور والحماية لبعثات التعدين والتجار(٢) .

وعين « سنوسرت الأول » بعد انتصاره على الجنوب « سارنبوت Sarenpuwt » أمير الفنتين « حاكما ومشرفا » على النوبة وكان لقبه المراقب الأكبر للنوبة . وكان حلقة الوصل فى حكم النوبة بين « أونى » فى الدولة القديمة و « تورى » فى الدولة الحديثة .

ويبدو أن تهدئة أهالى النوبة وترويضهم لم يكتمل الا فى عصر «سنوسرت الثالث» الذى قمع كلمقاومة باقية بعد حملات ناجحة أفزعت الكوشيين ، فهو الذى قام بشق قناة فى صخور الشلال الأول فكانت الى جانب قيمتها التجارية طريقا لسفنه الحربية ، وقد أقام لوحات حدوده عند بلدة «سمنة» ومن نصوصها نعلم أنها أقيمت «أى اللوحات» لمنع أى نوبى من أن يعبرها من الماء أو الأرض الا للذى سيأتى للتجارة،فسيقدم له كل شىء طيب .

ونتيجة لعظمة الأعمال العسكرية والتنظيمية التى قام بها«سنوسرت الثالث » والتى جعلت الأمن مستتبا فى النوبة فى عهد خلفائه من ملوك الأسرة الثانية عشرة فقد عبدوه كأحد الالهة الحامية للنوبة(٣) .

(١) Walter B. Emery., Op. Cit., P. 142.
(٢) محمد ابراهيم بكر : نفس المرجع السابق . ص ٣١ ، ٣٢ .
(٣) Walter Emery., Op. Cit., P. 155.

وفى عصر الأنهيار الثانى أيام الهكسوس يبدو أنه حدث تحالف بين ملوك الهكسوس ورؤساء قبائل « كوش » لوضع أمراء طيبة بين نارين ، ويفهم ذلك من حديث الملك « كامس » الى قواده « انى أتساءل ما فائدة قوتى عندما أجد قائد الهكسوس فى « تانيس » وآخر فى « كوش » وأنا أجلس هنا بين آسيوى ونحسى » ، وكل منهم فى حوزته ، قطعة من أرض مصر ، ويبدو أن الملك المصرى اتجه بعد ذلك ليؤمن ظهره بالتحالف مع النوبيين قبل الاتجاه للشمال لحرب الهكسوس(١) .

المجموعة الرابعة :

وهى التى عاصرت زمنيـا عصر الدولة الحـديثة فى مصر وتعتبر امتدادا أو تطورا لحضارة المجموعة الثالثة .

وفى هذه الفترة انضمت بلاد النـوبة السفلى والعليا الى مصـر وأصبحت جزءا لا يتجزأ منها ، وتأثرت هذه البلاد تماما بالثقافة المصرية وتعبدت الى الالهه المصرية وانتشرت فيهـا المعـابد المصرية(٢) ، وكان ذلك من أهم مايميز ملوك الدولة الحديثة ، وهو ازدياد نشاطهم المعمارى فى النوبة بشكل يفوق الوصف،فكان كل منهم يشيد معبدا أو أكثر،أو على الأقل يضيف مقصورة لعبد قديم،أو لوحة تخلد انتصاراته على المتمردين هناك ، وليس هناك أجمل من ذلك المعبد الجميل الذى شيده أمنمحوتب الثالث فى « صولب » ولا يوجد أضخم من معبد أبو سمبل الذى شيده رمسيس الثانى ولا يعنى ذلك أن السلم كان الصـبغة الدائمـة طوال عصر الدولة الحديثة فى علاقـة ملوكهم بالنوبيين بل كانت هناك بعض الاضطـرابات التى دفعت تحتمس الأول لاقامـة حصنا عنـد الشلال الثالث ، كما لو كانت فاتحة أعمال تحتمس الثانى هى اخمـاد العصيان الذى قامت به القبائل النوبية عند الشلال الثالث(٣) .

---

(١) Ibid., p. 170.

(٢) عبد المنعم ابو بكر : مرجع سابق . ص ٢٢ .

(٣) سليم حسن : المرجع السابق . جـ ٤ (١٩٤٧) ص ٢٩٥ — ٢٩٦

كما أن هناك أدلة على أن « تحتمس الأول » قد قام ببناء سلسلة حصون فى «تومبوس» وعلى جزيرة ساى وكذلك أعاد بناء بعض حصون الدولة الوسطى ووسع فيها ، كما أنه نظف القناة التى كان قد شـيدها سـلفة « سنوسرت الثالث »(١) على أن أهـم ما يميز تلك الفترة أنهـا كانت أهـدأ من الفترات السابقة نتيجة النظام الادارى الذى اتبعـه ملوك الدولة الحديثة ، فقد عينوا حاكما للنوبة أطلق عليـه لقب ابن الملك ، فكان بمثابة نائب فرعون ، وأغلب الظن أن هذه الوظيفة أنشئت فى عهد « أمنمحوتب الأول » وبقيت حتى عهد الأسرة الحادية والعشرين . وكانت الألقاب الرئيسية للحاكم المصرى فى النوبة أولا ابن الملك ثم ابن الملك صاحب كوش فالمشرف على الأراضى الجنوبية بالاضافة الى بعض الألقاب التى لم تكن وقفا عليه مثل : حامل المروحة ، الأمير الوراثى ، حامل الختم ، السمير الوحيد .. الخ من الألقـاب الشرفية ، ومعظـم الحكام كانوا من الذين تفانوا فى خدمة الفـرعون الشخصية وكان أول من تولى هذه المهمة رجل يـدعى « تورى » ولم يكن لنـائب الملك أى سلطة حربية بل كانت السلطة الحربية موكلة لرئيس رماة كوش الذى كان تحت ادارة نائب الملك مباشرة ، لذلك كان أهم ما يرمى اليه الملك فى اختيـاره لنائبه أن يكون اداريا حازما يمكنه جمـع الضرائب وادارة المرافق ، لذلك كان يختاره من أقرب المقربين اليه ممن اشتهروا بالذكاء والاخلاص فى العمل فلا يدس الدسائس ولا يرهق القـوم بالضرائب الباهظة لذلك كان الملك يعينه بنفسه ولم تكن الوظيفة وراثيـة بل كانت بالتعيين(٢) .

---

(١) Walter B. Emery., Op. Cit., P. 175.

(٢) سليم حسن : المرجع السابق . جـ ٥ (١٩٤٨) . ص ١٦٥ ، ١٧٦

تمصيـر النـوبة :

تمصرت النوبة تمصيرا كاملا سواء سياسيا كما ذكرنا أو ثقافيـا واجتماعيـا ، من هـذه الفترة حتى أصبحت الثقافة المصرية هى المثل الأعلى للنوبيين فأصبحت المقـابر مصرية الشـكل والتصميم ، فمن مقـابر صخرية ، لمقـابر على شكل أهرام صغيرة كالتى عرفت فى دير المدينة ، كما عثر فى المقابر على توابيت وتماثيل صغيرة مثل التى وجدت فى المقابر ، وكان الغرض من هذه التماثيل أن تقوم بالخـدمة فى حقول « أوزير »(*) فى العالم الآخـر بدلا من المتوفى لذلك كانت توضـع بعدد أيام السنة ٣٦٥ تمثال كما عثر على جعارين وتمائم وأوان مصرية فى المقابر النوبية ، وكذلك أصبحت المراكز الحضـارية مثل « عنيبة » و « بوهن » تشبه فى مظهرهما الى حد كبير ، المدائن المصرية •

كما أنهم أخذوا لأنفسهم ولأولادهم أسماء مصرية ، وقد عثـر فى المقابر على الكثير من السلع المصرية المنتشرة فى تلك الفتـرة والتى جلبها اليهم التجار المصريون الذين شاركوا فى نقل الحضارة كما ساعدت المعابد المصرية على ازدياد رقعة عبادة الالهة المصرية ، فأصبحت«كوش» مثل«طيبة»مركزا لمعبود الدولة «آمون رع» كما قدس الملوك المصريون، وفى مقدمتهم « سنوسرت الأول ، وسنوسرت الثالث »،وكذلك « تحتمس الثـالث » « وأمنـوتب الثـالث ، « وتوت عنخ آمون » ، ورمسيس الثـالث » « وأمنـوتب الثـالث ، وتوت عنخ آمون » ، « ورمسيس الثانى » ، واعتبروا جميعا جراسا للبلاد (١) •

حكم النوبيون لمصر :

استمر الحال هكـذا حتى ظهرت أسرة قوية من الأمراء النوبيين انتهزت فرصة القلاقل والنزاع الذى انتشر فى مصر منذ القرن التاسع

(*) أوزير : اله الموتى عند المصريين القدماء . وكان كل مصرى من فقير وغنى ، وحاكم ومحكوم ، يعتقد أنه سيتمتع بنعيم الآخرة فى رحابه .
(١) محمد ابراهيم بكر : المرجع السابق . ص ٣٩ ، ٤٥ .

ق٠ م٠ وكانت البلاد اذ ذاك قد انقسمت الى مملكتين : احـــداهما فى الدلتا ، والأخرى فى مصر العليـــا ، انتهزت هـــذه الأسرة حالة التدهور السياسى فى مصر وقبضت بيد من حديد على جميع مناطق بلاد النوبة ثم أخذت ترنو بأبصارها نحـــو الشمال وعملوا جاهـــدين على تحقيق حلمهم فى الاستيلاء على عرش الفراعنة واســتطاع « بعنخى » أحـــد أفراد هـــذه الأسرة أن يحقق الحلم وكون الأسرة الخامسة والعشرين من التـــاريخ المصرى(١) تلك الأسرة التى اختلف العلماء حـــول أصلهـــا فمنهم من يرى أن أصلها مصرى أو ليبى أو نوبى والـــذين يـــرون أنها من أصل مصرى يعتقدون أنهم أنفسهم كهنة الأسرة الحادية والعشرين الذين هاجـــروا الى النـــوبة ثم عادوا اليهـــا حكاما للاسرة الخامســـة والعشرين ويعتمـــدون فى ذلك على الطابع المصرى لحضارة تلك الأسرة وتمسكهم بعقيدة آمون وهى الديانة الرسمية لمصر القـــديمة بالاضافة الى اسم عاهلها المصرى الصميم « بعنخى » والذى سبق استعماله فى الأسرة الحادية والعشرين ٠

ويرفض « بكر » كل ذلك فهو يرى فى التأثير الحضارى أنه نتيجة طبيعية لطول استيطان الحضارة المصرية فى النوبة كما أنه لم يكن مـــن من بين اسماء ملوك هذا البيت سوى اسمين مصريين فقط هما « بعنخى » و « حورسيوتف » ، وعن ارتباط هذه الأسرة « بآمون » كمـــا أســـلفنا الذكر كان له دوره الكبير،وبنيت له العديد من المعابد على امتداد أنحاء النوبة،ومن كل ذلك يرى«بكر»أن أصلهذه الأسرة نوبى وليسمصرى(٢)٠ ولكن دولة آشور الفتية استطاعت طرد الملك « طهارقا » الذى هـــرب من طيبة الى عاصمته الجنوبية«نباتا» وبعد وفاته ، تولى ابنه « تانوت آمون » الحـــكم واستطاع أن يكسب الجولة الأولى فى معـــركته مـــع آشور ، الا أن الجولة الثانية كلفته خروج النوبيين من مصر والاستقرار فى « نباتا » وبسطوا نفوذهم على النوبة السفلى لفترة تزيد عن ثلاثة قـــرون(٣) ٠ واستمروا يحملون ألقاب فراعنـــة مصر التقليدية فى ذلك

---

(١) عبد المنعم ابو بكر : المرجع السابق ٠ ص ٢٣ ٠
(٢) محمد ابراهيم بكر : المرجع السابق ٠ ص ٦٤ — ٧٥ ٠
(٣) عبد المنعم أبو بكر : المرجع السابق ٠ ص ٢٤ ٠

الوقت الذى تكونت فيه فى مصر الاسرة السادسة والعشرين وقام الملك « بسامتيك الثانى » بأكثر من غارة ضدهم باحتلاله « نباتا » وانتقلت عاصمة النوبيين السياسية الى « مــروى » ما بين الشلالين الخـــامس والسادس وبقيت « نباتا » كعاصمة دينيـــة ، تلاشت مكانتها مع أفول التأثير القوى لكهنة آمون •

وبعـــد أن هزم « قمبيز » الملك المصرى « بسماتيك الثالث » فى « بلوزيوم » ، أصبحت مصر اقليما فارسيا سنة ٥٢٥ ق• م• ثم اتجه الغازى نحو النوبة ولكن جيش « قمبيز » عاد مهزوما هزيمة منكرة ، وتقهقرت الحضارة المصرية الى «مروى» وحل محلها حضارة غير أصيلة سميت بأسم العاصمة الجديدة «مروى» • ومع أن التأثير المصرى الدينى والفنى كان الغـــالب على هـــذه الحضـــارة ، الا أن التأثير الاغريقى والأفريقى كانا لهمـــا مكانة أكبر ، فالكتابة الهيروغليفية تغيرت أشـــكالها بالتدريج حتى أصبحت الهيروغليفيـــة المروية بخط مختصر ، وانتعشت الدولة المروية وتحررت من التدخل الأجنبى ونمت وسيطر حكامها على شمال السودان كله ، وبالتدريج سيطرت على النوبة العليا ، ومن النوبة السفلى نمت مستعمرة مروية فى هدوء وســـلام ، وبقى الحال طيبا حتى وفاة كليوباترا وأصبحت مصر ولاية رومانية (١) •

المجموعـــة الرومانيـــة :

وهى التى تعاصر حـــكم الرومان لمصر فى ذلك العصر قام أهـــل الصعيد بثورات جامحة مطالبين باجلاء المستعمر الغاشـــم وقد ســـاند النوبيون اخوانهم المصريين فى معظم هذه الثورات وفى عصر الامبراطور أغسطس قام الحاكم الرومانى باخماد ثورة الطيبيين ثـــم زحف للنوبة لمعاقبة أهلها ولكنه لم ينجح فى ذلك وعاد وتركهـــم متمتعين باستقلالهم مع الاعتراف بالسيادة الاسمية فقط للرومان •

(١) Walter B. Emery., Op. Cit., P. 223.

ثم قام النوبيون بعدها بمهاجمة صعيد مصر وتغلبوا على الحامية الرومانية ونهبوا جزيرةأنس الوجود وجزيرة«الفنتين»«ومدينةأسوان» . ولكن سرعان ما استعد الرومان وردوا على هــذه الثــورات وخرجوا لملاقاة الجيش النوبى عند «الدكة» وهزموه ثم تعقبوه وحاصروه فى قلعة « قصر ابريم » واستولوا عليها ، وبعــدها دخلوا العاصــمة القــديمة « نباتا » ودمروا ونهبوا كنوزها ، وبعد عامين تقدم النوبيون للثأر ، ولكنهم اضطروا لقبول الصلح مع الرومان أمام ضعفهم ، وكان الصلح شرفا لهم ، لانه أعفاهم من دفع الجزية للرومان .

واســتقر السلم فترة طــويلة فى المنطقــة وقام الرومان بتشييد المعاقل والحصون التى لاتزال آثارها باقية فى الدكة ، كلابشة ، قرطاسة وأبو در الى أن ظهر شــعب جديد هو شــعب البليمى الذى تمكن من القضاء على الرومان قضاء نهائيا بصفة عامة ومن النوبة ومصر بصــفة خاصة بعد جولات عديدة من الضرب والصــد وبنهايــة عصر الرومان دخلت المسيحية بــلاد النوبة فى منتصف القــرن السادس الميــلادى وهــذا ما أطلق عليه امرى اسم العصر البيزنطى(١) .

العصــر البيــزنطى :

وعندما أخذت الأحوال سبيلها الى الاســتقرار فى منتصف القرن السادس انتشرت المسيحية وهنا تحولت معظم المعابد الفــرعونية الى كنائس وكان فى مقدمتها جميعا معبــد « ايزيس » الذى افتتحه رئيس مطارنة اســوان عام ٥٧٧ م وتكونت مملكة مسيحيــة نوبيــة (٢) كانت عاصمتها بلدة «فرص» أو «فرس» ، ثم انتقلت الى عاصمة جديدة وهى بلدة « دنقلة » وامتدت المملكة المسيحية الى جزيرة « مروى » وتكونت

---

(١) عبد المنعم أبو بكر : المرجع السابق . ص ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٠ .

(٢) نفس المرجع السابق : ص ٣٠ .

مملكة « علوه » وكانت عاصمتهـا « سـوبه »(١) • وبذلك كان للنوبة فى عهد المسيحية مملكتان :

الأولى : مملكة النوبة السفلى من الشـلال الأول الى الشـلال الرابـع ، وعاصمتها دنقلة العجوز •

الثانية : مملكة النوبة العليا من الشلال الرابع الى أعالى جزيرة سـنار وعاصمتها « سوبة » على النيل الأزرق على بعد خمسة عشر ميلا من الخرطوم • وقام رجال الكنيسة بترجمة بعض أجزاء من الكتاب المقدس الى اللغة النوبية ، وعظم الاتصـال بين مطـارنة النوبة ، ومطـارنة الاسكندرية ، مثلما كان الحال مع مطارنة الحبشة(٢) •

هذا وقد ظلت المملكتان المسيحيتان قائمتين حتى سقطت « دنقله » و « سوبة » فى يد العرب فى عهد السلطان قلاوون •

الفتح العربى لبلاد النوبة :

كان السائد أن حملة « قلاوون » التى تمت عام ١٣١٨ م قد قضت نهائيا على المسيحيين فى بلاد النوبة السفلى الا أنه فى عام ٦٣ ، ١٩٦٤ تم ازاحة الرمال بقلعة قصر ابريم عن مقبرة لاسقف عاش فى القـرن الرابع عشر لم تمتد اليها يد ، قبل كشفها • وقـد عثر بين ملابسه على لفافتين طول كل منهما ستة عشر قدما كتبت احـداهما باللغة القبطية وهى اعلان رسمى بتنصيب هذا الرجل فى القاهرة القـديمة أسقفا على فرس وابريم فى بلاد النوبة ، أما اللفافة الثانية فهى نسخة منها باللغـة العربية • وتاريخ هذين القرطاسين يرجع الى سنة ١٣٧٢م ولكن الارجح

---

(١) محمد عوض : السودان الشمالى سـكانه وقبائله . مطبعـة لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة . (١٩٥٦) . ص ٢٩٦ ، ٢٩٨ .

(٢) صدقى ربيع : النوبة بين القديم والجديد . الدار القومية للطباعة والنشر . (بدون تاريخ نشر) . ص ٣١ — ٣٢ .

أن المسيحية أخذت تزول رويدا رويـــدا بعد أن خير السكان بين دفـــع الجزية أو التحول الى الاسلام ٠

والحقيقة أنه لاتوجد معلومات واضحة عن مركز المسيحية فى النوبة منذ القرون الوسطى ولكن الثابت أن الاسلام أخذ يسير رويدا رويدا ٠ ولقد كان من الواضح أن المسيحية قد انتشرت بين الطبقة الحاكمة فى النوبة وسكان الحضر وحدهم ولم يعتنقها أهل البادية وكان قساوستها وكتبها ولغتها تصل اليها من الخارج،لذلك لم يجد أهل النوبة من يرشدهم الى أمور دينهم حينما سقطت مصر فى يـــد المسلمين ، وانقطعت الصلة بينهم وبين مصر ، ولما ســقطت دنقلة العجــوز فى يد العــرب واعتنق ملوكها الاسلام ، كان ذلك نهاية الدين المسيحى كدين رسمى فى النوبة ، وبمرور الزمن أخذت المسيحية تتلاشى(١) ٠

ولما فتح العرب مصر حوالى ٦٤٠ كان عليهم أن يؤمنوا مراكـــزهم فيها من الناحية الجنوبية ، فجعل عمرو بن العاص يرسل كتائب الفرسان تقتحم على النوبيين أرضهم دون الاهتمام باستيلاء على النوبة ، وبعد احدى عشرة سنة حدث تمرد فى النوبة فذهبت اليه حملة ضخمة بقيادة عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، عندما تولى أمر مصر وسارت أربعين ليلة من أسوان حتى بلغت «دنقلة» العجوز وحاصرتها وخربتها بالمقاليع وهدمت كنيستها ، وكان النوبيون محاربون أشداء يجيـــدون اطـــلاق السهام التى كانت تنهمر على العرب ، فتدمى أجسامهم وتفقأ عيونهم ٠

وطلب ملك النوبة « قلدس » الصلح فعقـــد العـــرب معه صـــلحا وشيدوا خارج دنقله مسجدا يســـجل دخولهم هناك وجعلوا الاعتـــداء عليـــه سببا من أسباب نقض الهدنا ، وقـــد أطلق العـــرب على النوبة أسم « رماة الحـــدق » ٠

---

(١) نفس المرجع السابق ٠ ص ٣٢ ٠

ويجدر الاشارة الى تلك المعاهدة التى تناولت نصوصها ما يلى :

« يا أهل النوبة سوف تعيشون فى أمان فى ظل العنـاية الالهية ، ورعاية الرسول محمد ، وللرعاية من كلا الطرفين حق عبور الحدود على ألا يكون قصدهم الاقامة ، وعلى الجانب الذى يعبرون اليه حمايتهم • وعلى النوبيين أن يحافظوا على المسجد الـذى بنى فى مدينتهـم وليس عليهم أن يعتنقوا الاسلام مرغمين • واذا انتهكتـم شروط المعاهـدة فسوف نعود الى العدوان حتى يحكم الله بيننـا وبينكـم ، وهو خير الحاكمين » •

وقد أقسم المسلمون على المحافظة على شروط المعاهدة باسم الله ورسوله وطالبوا من النوبيين أن يقسموا على كل ما يعتبـرونه لـديهم مقدسا وبالمسيح وبحوارييه •

ومن الأشياء الجديرة بالذكر ، أن النوبيين لم يعتنقوا الاسلام عند زحف الجيوش الاسـلامية ، بل ظلوا على دينهم حتى القرن الخامس عشر(١) •

وفى أثناء هذه الفترة دخلت بعض بطون من قبيلة ربيعة ، وقبيلة جهينة ، المنطقة النوبية ، وانتشرت فى الاقليم الشمالى ، ويضيف « ابن خلدون » لتاريخ تلك المرحلة بقوله «ثم انتشرت أحياء العرب من جهينة فى بلادهم واستوطنوا وملكوها وملأوها عبثـا وفسـادا وذهب ملوك النوبة الى موافقتهم فعجزوا،ثم ساروا الى مصانعتهم بالمصاهرة فافتر ملكهم ، وصار لبعض أبناء جهينة من أمهاتهم،على عادة الاعاجم فى تمليك الاخت وابن الاخت ، فتمزق ملكهم،واستولى اعراب جهينة على بلادهم، ولم يبق لبلادهم رسم للملك ، لما صبغته البداوة العربية من صبغتهم بالخلطة والالتحام(٢) •

---

(١) نفس المرجع السابق • ص ٣٥ ، ٣٦ •
(٢) ابن خلدون : كتـاب العبر • القسـم الأول • المجلد السادس منشورات دار الكتاب اللبنانى للطباعة والنشر • (١٩٦٨) • ص ٩٢١ •

لقد حدث الاندماج بين هذه القبائل وخاصة قبيلة « بنى كنــز » التى كانت أكبر القبائل وأقواها ، وبين النوبيين فى قرى هذا الاقليــم عن طريق المصاهرة ، فانتشرت اللغة العربية . هذا وقد قدم «بنو كنز» فى الأصل من صحارى نجد حين انتشرت القبائل العربية القــادمة من الشرق ، وهناك قبائل أخرى مثل قبائل الجوابرة والبغدادية انتشرت فى المنطقة من الجندل الأول الى الجندل الثانى .

وقد دخلت الى المنطقة الوسطى فى القــرن الثــامن عشر بعض الجماعات من قبيلة عرب «العليقات» وعرفت باسم «وادى العرب» ، وكانت هذه الجماعات أصلا من الحجاز وهاجرت الى شبه جزيزة سيناء ثم انتقلت الى النوبة واشتغل معظم أفرادها فى نقل التجارة السودانية بين الشلال الاول والشلال الثانى كما كانوا يشتغلون فى تجارة الرقيق، وقد تركوا الرعى واستقروا فى المنطقة الوسطى عنــدما أهمــل درب الاربعينى واستخدم النيل كطريق للمواصلات . وقد استقروا فى هذه المنطقة لقربها من«كروسكو»التى كانت ملتقى للقوافل،وبعد أستقرارهم فى المنطقة ، انتشروا فيها ، فتكونت القرى العربية الأخرى(١) .

وهناك من يقول أن التأثير العربى من الناحية السلالية فىالنوبــة طفيف لانه ليس من السهل ادراك كيف يؤدى استقرار بعض أفراد من القبائل العربية فى مختلف البلاد النوبية الى تحرير أو تعديل فى المميزات الفيزيقية للجماعات النوبية(٢) .

الهجرات الى بلاد النوبة من الصحراء الغربية والشرقية :

لقد هاجرت الى بلاد النــوبة من الصحراء الغــربية والشرقيــة جماعات من الصحراء الليبية الى داخل المنطقــة النوبية واستقرت فى

---

(١) على زين العابدين : فن صباغة الحلى الشعبية النوبية . الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة . (١٩٨١) ص ٣٦ .

(٢) نفس المرجع السابق . ص ٣٦ .

غالبية قرى القسم الجنوبى وفى قرية عربية واحدة هى « شاترمه » ، أما الباقون ، فيستقر معظمهم فى قــريتى « توماس » و « عافية » وهما من قرى النوبيين « الفاتديجا » •

كما استقرت بعض الجماعات من العبابدة والبشارية (من البجة) الذين يقطنون الصحراء الشرقية فى القرى النوبيــة ، وقــد اندمــج بعضهم مــع سكان القرى وصاهروهم ، وقــد هجروا الرعى واعتمدوا على الزراعة وتربيــة الماشية مثل النوبيين ، وهنــاك العبــابدة الذين يعيشون فى نجوع خاصة بهــم كما هو الحــال فى قريتى « المحرقة » و « السيالة » كما ان هناك «العبابدة» شبه المستقرين الذين يعتمدون على الزراعة بالمشاركة مــع النوبيين وتأجير العمــال ابنــاء الصعيد لزراعة الأرض لتوفير الاعــلاف لحيواناتهم فى فصل الخريف والصيف ، الى جــانب الانتقــال الى منــاطق الرعى داخــل موطنهم الأصــلى فى الصحراء الشرقية فى الشتاء والربيــع ، ويقيم هؤلاء العبابدة فى نجوع خاصــة فى ماريا والعــلاقى وقرية الدكة •

وهناك الرعاة من « العبابدة » الذين يترددون على منــاطق معينة بالقرب من النجوع التى استقر فيها أقاربهم كما هو الحــال فى القرى الواقعة بين « كروسكو » و « أدندان » •

واستقرار بعض العبــابدة ، والبشارية ، وترددهم على القــرى النوبية ، ومجاورتهم للنوبين فى الصحراء الشرقية ، منذ أقدم العصور ، قــد جعل هناك مجالا للالتقاء الفكرى ، والثقافى ، وقرب بينهما الأمر ، الذى ينعكس أثره على كثير من العــادات والتقاليد[١] •

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ٣٧ .

الاتراك (الكشـــاف) فى النوبة :

حــدث امتزاج طفيف آخــر فى بــلاد النوبة عندما كانت مصر وبلاد النوبة خاضعة للحكم العثمانى منذ عــام ١٥١٧م • فقــد ارسل ســليم الأول سرية من الجنود الاتراك عــام ١٥٢٠ الى بــلاد النوبة وذلك لحراسة الحدود الجنوبية لمصر،ونزلوا فى «أسوان» و «أبريم» • ولكنهم لم يلتزموا قرية «أبريم»،وانما انتشروافى قرى الأقليم الجنوبى الممتد من قرية«الديوان»الى قرية«أدندان»لاتساع الرقعة الزراعية فيه عن القرى الشمالية من ناحية ، ومقاومة القبائل الكنزية لهم من جهــة أخرى • وقــد أطلق عليهــم النوبيون « الكشــاف » وتعنى الحكام • وانتقلت هــذه التسمية الى أحفادهم أفراد القبــائل التى تكونت والتى تحمل اسماءهم ••• وقــد صاهر هؤلاء الحكــام والجنود القبــائل النوبيــة •

وهناك بعض القبــائل التى تدل اسماؤها على الموطن الأصــلى لكل مؤسسيها ، ففى « عنيبة وقتة وأبريم وتوماس » يقيم أفراد قبيلة «المجراب» ، حيث جاء جدهم من «المجر» ، وكان من جنود سليم الأول• وبالمثل قبيلة « ابذرحاناب » التى تنتشر فى « أبى ســنبل والديــوان والدروتنقالة وتوماس » ، وقبيلة «كوردياب» • وهناك من القبائل التى تدل اسماؤها على الرتب العســكرية لمؤسسيها فى الجيش التركى مثل قبيلة « القائم مقامات » وقبيلة « الشاويشاب » • ويشير الرحــالة فى القرن التاسع عشر وفى كتاباتهم الى الأصول الكردية ، والبلقانية ــ مثل الألبان وغيرهم ــ لتلك القبــائل وان أفرادها يفتخرون بتلك الأصول ويمتــاز أفراد هــذه القبائل « الكشاف » بالبشرة الاخف سوادا عن النوبيين(١) • والواقــع أن انحدارهم من هــذا السلف كفيل بأن يضفى عليهم منزلة ومكانة اجتماعيين ، فأسلاف القبائل « الكشاف » كانوا حكام

---

(١) نفس المرجع السابق • ص ٣٧ ــ ٣٩ •

البلاد ، يرتبطون بنسب القبائل النوبية ، وبالتالى ينظرون الى أنفسهم بأنهم أعلى مكانة من الكنوز والعرب •

وفيما يختص بالعوامل الاقتصادية ، فقد كانت الظروف الاقتصادية فى قرى النوبيين أفضل بكثير من ظروف الكنوز والعرب ، لاتساع الرقعة الزراعية فى تلك القرى عن قرى الآخرين ، الأمر الذى أدى الى ان يتمتع النوبيون بمستوى معيشة أفضل بكثير مما كان عليه العرب والكنوز •

وبعكس استخدام تسميات الجماعات الثلاث فى اللغة الدارجة ، فهناك ما يثيره أفراد كل جماعة منها حول علو وسمو مكانتهم عن أفراد الجماعتين الاخريين،على الرغم من أختلاف مدلولات الأسماء عن معانيها الحقيقية فيعرف « الكنوز » باسم « الماتوكيين » ، وتعنى الوافدين من الشرق ، فى حين يطلقها « النوبيون » عليهم احتقارا لهم حيث يعنون من استخدام هذه التسمية للكنوز الذين يتجولون فى قرى النوبيين يلتقطون ما تبقى من محصول البلح وتنظيفه من الاعشاب بعد جمع النوبيين للمحصول ، وكان بعض « الكنوز » يتجولون فى تلك القرى ويقيمون لبضعة أيام فى كل قرية بالقرب من مساكن الأهالى ، ويقومون بتقديم بعض الخدمات وبعض السلع للاهالى ، اضفى ذلك على الكنوز ضعف المكانة الاجتماعية فى نظر النوبيين •

أما العرب فيعرفون « بالعقيلات » أشارة الى عقيل بن على بن أبى طالب الذى ينتسبون اليه ويحملون اسمه ، ويستخدم الكنوز والنوبيون كلمة « العقيلات » عند الأشارة للعرب لكى تعنى المتجولين فى القرى لقص صوف الأغنام والحصول على الصوف مقابل العمل ، وقد التصق هذا العمل بالعبيد فى الماضى الذين كانوا لدى النوبيين والكنوز •

ويعنى ذلك ان أقبال العرب على مثل هذا العمل فى الماضى قد أضفى عليهم المنزلة والمكانة الاجتماعيين اللتين يرتبط بهما العمل ،

يضاف الى ذلك ان الكنوز والنوبيين يعتبرون عرب « العقيلات » اغرابا عن مجتمعهم ، وليسوا من سكان بـــلاد النوبة .

ويطلق الكنوز والعـــرب على النـــوبيين « الفاتديجا » للاشـــارة الى النوبيين الهاربين من الجنوب ، الاغراب عن المجتمع النوبى والذين ينتمون الى الأصول السودانية « جنوب السودان »(١) .

الواقـــع ان استخدام الكنوز والعـــرب والنوبيين لهذه التسميات الثلاثة فى الاشارة الى بعضهم البعض ، كان فيما مضى يتضمن التقليل والدونية وضعف المكانة الاجتماعية لأفراد الجمـــاعتين بالنسبة لأفراد الجماعة الأخـــرى .

ولقد أسفرت شواهد « الباحث » فى دراسته الميدانيـــة أن أغلب شيوخ«الفاتديجا» «والكنوز» ممن تسنى مقابلتهم،أنهم لا يهتمون بفروق المكانة بين الجمـــاعتين ، بل ان كـــل ما يذكروه عن أنسابهم أصـــبح من الموضوعات الهامشية فى حياتهم ، فمن بين شيوخ « الكنوز » من يذكر أنه ينتسب الى السلف الصالح من المسلمين دون أن يحـــدد أحدهم ، ومن بين شيوخ « الفاتديجا » ما يعتقد أن جذور انسابهم يمتـــد الى الأتراك أو الأكراد أو المجريين ، دون تحـــديد ، ولكنهـــم يؤكدون فى النهاية ــ أى الفاتديجا ــ أنهم من أصـــل فرعونى .

---

(١) نفس المرجع السابق . ص ٤٩ ، ٥٠ .

الفصل الثانى

النوبيون بين الهجـــرة والتهجير

يتنـــاول علمـــاء العلوم الاجتماعيـــة مصطلح الهجرة Migration للتعبير عن تحركات الأفراد والجماعات من منطقة جغرافية الى منطقـــة جغرافيـــة أخرى بقصد الاقامة الدائمة(1) .

والهجرة من وجهـــة نظـــر الديموجرافيين تعنى التغيير الدائم فى محـــل الاقامة ، ويعرف الانتقـــال عبر الحـــدود الدولية عادة بالهجرة الخارجية للتميز بينها وبين الهجرة الداخلية التـــى تحـــدث داخل حدود الـــوطن .

وتعرف الهجـــرة من الدول الى خارجهـــا بالنـــزوح **Emigration** ويختلف الاصطلاح فى اللغـــة الانجليزية فى حالة الهجرة الداخلية ، اذ يطلق عليهـــا Out-migration و In-migration على التوالى(2) .

أما عن دوافـــع الهجرة فيقسمها البعض الى عاملين أولهما الهجرة الجـــاذبة أو الاراديـــة ، وثانيهمـــا الهجـــرة الطـــاردة أو القاهرة .

فالعوامل الجـــاذبة أو الارادية تعنى القرار لشخص فى الهجـــرة دون تدخل من أى جهة أو سلطة ، أى أن القـــرار نابع من ارادة النسان ذاته .

ونعنى بالعوامل الطاردة أو القهرية ، رضوخ الانسان الى قـــرار فرضته طبيعـــة الظروف للهجـــرة ، وترتبط هـــذه الظـــروف بأسباب عسكرية أو أضطهاد دينى أو سياسى أو ظـــروف اقتصادية أو عوامـــل طبيعيـــة .. الخ(3) وعلى سبيل المثال فقـــد أدى الزحف الألمانى على

---

(1) David Popenoe., Sociology, Englewood Cliffs, N.J., 1980. P. 478.

(2) دنيس هـ. رونج : علم السكان . ترجمة محمد صبحى عبد الحكيم . مكتبة مصر بالفجالة . (١٩٦٧) ص ١٢٦ .

(3) نفس المرجع السابق . ص ١٣٢ .

أوربا الشرقية فى فترة الحرب العالمية الثانية الى تهجير مدن بأكملها الى أماكن أخرى • وفى مواجهة العدوان الاسرائيلى على مصر عام ١٩٦٧ تم تهجير مدن القناة الى باقى المحافظات •

أما ما يتصل بالاضطهاد الدينى وأثره فى الهجرة فنجد مظاهرة فى أضطهاد النازيين لليهود فى شرق أوربا فى فترة الثلاثينيات وهجراتهم الى مدن الشرق الأوسط ، ثم قيام هؤلاء — أى اليهود — بممارسة الارهاب ضد عناصر السكان الأصليين من العرب فى فلسطين وطردهم ، مما أدى الى هجرات أغلبهم الى باقى الدول العربية •

وفيما يتصل بالهجرة نتيجة العوامل الاقتصادية ، فنجد لها على سبيل المثال ، نموذجا ، يتمثل فى ظروف القحط التى تعرضت له ايرلندا فى الأربيعينيات ، والتى أطلق عليها مجاعة البطاطس ، مما أدى الى هجرات جماعية الى الولايات المتحدة الأمريكية •

بعد ذلك نجد نموذجا آخر للتهجير يرتبط باستغلال أراضى معينة للمشروعات العامة للدولة ، تتولى فيها الدولة تهجير سكانها تحت اشراف أجهزتها كما حدث للنوبيين عام ١٩٦٣ قبل البدء فى مشروع السد العالى • واختيرت منطقة « كوم أمبو » لاسكانهم للتقارب بين مناخها ومناخ منطقة النوبة وتوافر الأرض المناسبة للزراعة •

الهجرة وفكرة دار السلام :

كان من نتائج قيام الدولة بالتوسع فى مشروعات الرى خلال الفترة عام ١٩٠٢ الى عام ١٩٣٣ • أن تعرض أهالى بلاد النوبة لمرات عديدة للهجرة ، أولها عند بناء خزان أسوان فى الفترة ما بين ١٨٩٨ ، ١٩٠٢ ، ليرتفع منسوب المياه أمام الخزان الى ١٠٦ مترا مغرقا

تحت مياهه بعض الأراضى الزراعيـــة من موقعـــه حتى قرب « الدكة » مما أدى الى زحف أهالى النوبة من مقرهم القديم الى المرتفعات ٠

والمرة الثانية عند اجراء التعلية الأولى لخـــزان أسوان فى الفترة ما بين ١٩٠٧ ، ١٩١٢ حيث أرتفـــع منسوب الميـــاه أمام الخـــزان الى ١١٣ر٩ مترا مما أدى الى هجرة بعض الأهالى الى أســـوان فى الشمال وباقى قرى النوبة فى الجنوب وكانت هـــذه الهجرات متمثلة فى حالات فردية ، كمـــا أن بعض الأهـــالى فضـــلوا البقـــاء على أرض قـــراهم وزحفوا بمساكنهم الى المنـــاطق المرتفعة ٠ والمـــرة الثالثة فى أعقـــاب التعلية الثالثة فى الفترة ما بين ١٩٢٩ ، ١٩٣٣ ، حينما تجـــاوز منسوب الميـــاه ١٢١ مترا فغمر بعض أراضى المنطقـــة وخفض مساحة الأرض المزروعة مما أدى الى صدور القـــانون رقم ٦ لسنة ١٩٣٣ الخـــاص بنـــزع ملكيـــة وتعويض نواحى الشـــلال ، ودابود ، ودهميت بمركز أسوان ونواحى الامبـــركاب وكلابشة وأبوهور ومرواو وقورته وماريا وجرف حسين وكشتمنة والدكة والعلاقى وقرشة وسيالة والمضيق ووادى العـــرب وشانزيه والمالكى والسنقارى وكروسكو وأبو حنضل والريقة والديوان وتنقالة وقتة وأبريم وجزيرة أبريم وتوماس وعافية وعنيبة والجنينة والشباك ومصمص وتوشكى غـــرب وتوشـــكى شرق وأرمنـــا وأبوسنبل وبلانة وقسطل وأدندان بمركز دراد[1] ٠

ويحكى « الحـــاج طه محمـــد » أحـــد شيوخ قرية دار السلام النوبية عن هـــذه الفترة ، أن عرضـــا جاءهـــم من مستر « جريفس » وكيـــل حكومة الســـودان فى هـــذه الفترة ، بأن يهاجروا الى جـــزيرة « أبـــا » فى الســـودان مقـــابل أن تستصلحها الحكومة لهـــم ، وتوفر المساكن المـــلائمة لاقامتهـــم ، فاســـتجاب قلة منهـــم ، وهاجروا الى السودان ، وبقى النوبيون مرتبطين بأرض مصر ، ومنهم من هاجر الى

---

(١) وزارة الشئون الاجتماعية . تقرير منشور بعنوان : تهجير النوبة ، ١٨ كنوز (١٩٦٣ — ٣ يونيو ١٩٦٤) ٠

عواصم المحافظـات سعيا وراء الرزق من خـلال مشروعات تجارية ، ومنهم من اشترى أرضـا زراعية فى صعيد مصر لزراعتها • وهناك من فضل العمل التعاونى على النشاط الفردى •

أما هؤلاء الذين فضلوا العمل التعاونى فيما بينهـم ، فهم أهالى قرى أبو هور وأبو حنضل والديوان وتنقـالة • فبقيمـة التعويضات استطاعوا أن يشترو حوالى ١٠٠٠ فدان من شركة كوم أمبو بالقـرب من « دراو » بهـدف استصلاحها وأقامة مساكنهم على جزء منهـا • وحينمـا أرادوا اختيـار اسـما لقريتهـم ، اسـتعانوا بكتاب الله • وكانت أول آية تقع عليها أنظارهـم ، قوله تعـالى : والله يدعوا الى دار السـلام ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم » وتيمنا بهذه الآية أطلقوا على قريتهم ، اسم دار السلام النوبية •

الجزء الثاني

الدراسة الميدانية

مدخل للدراسة الميدانية :

ان المجتمع الذى يستطيع أن يتخطى كل المشكلات الاجتماعية ، ويتحدى العوامل الطبيعية فى باطن أرضه ، ثم يحول نفس الأرض مصدرا لرخائه ، ويصمد لتحدى لآفات التى أكلت جدران بيته ليجعل من انقاضها سبيلا الى سكن تشيع فيه الحياة والرفاهية ، مثل هذا المجتمع لجدير بالاهتمام العلمى مهما كانت الصعوبات التى تواجه دارسته •

هكذا كان انطباعى بعد دراستى الاستطلاعية التى أجريتها بين المجتمع المحلى فى قرية دار السلام النوبية ومزرعتها التعاونية فى الفترة من ٣ — ١٠ مارس ١٩٨٢ •

والشىء الطبيعى لمثل هذه الدراسة هو اعداد أدوات جميع البيانات وتسجيل الشواهد والمقابلات ومضمون الوثائق •

والواقع أننى أعددت استمارة استبيان لجمع البيانات شملت الحالة الاجتماعية ، والنوع والسن ، والتركيب المهنى والدينى والتعليم•

ومع بداية العمل فى المجال التطبيقى واجهت موقفا مثيرا حينما كانت تأتى بعض اجابات من أفراد العينة ، خاصة من السيدات كبار السن ، بلهجة نوبية ، مما جعلنى استعين بجهاز تسجيل الصوت ، وطالب وطالبة نوبيين من طلبة الدراسات العليا من خريجى المعهد العالى للخدمة الاجتماعية من المقيمين باسوان ، وكان الطالب من « الفاتديجا »

والطالبة من « الكنوز » وذلك للقيام بتسجيل المقابــلات ، ثم ترجمة ما يأتى من كلمات نوبية الى اللغة العربية •

ومن الطبيعى فى مثل هذه الدراسة ، نجد الضرورة المنهجية تقتضى أن يتزود الباحث باستبصارات جديدة توجه الدراسة الى موضوعات لم تتطرق الى ذهنه • وفى الحقيقة كان شيخ القرية « الحاج طه محمــد سليمان » هو الرجل الذى أسهم بأفكار متعددة حول كثير من قضــايا هــذه الدراسة • فقد كانت مقابلاتى الحرة معه مجالا لاجابات لعديد من التساؤلات ، وكانت هــذه الاجابات تتسم بالصراحة وكثيرا ما كان يدعمها بالوثائق التى يحتفظ بها فى مسكنه •

وحينما كان يتطرق الحديث حول المزرعة التعاونية ، كان يتمسك بأن تكون اجاباته على أرضها وشواهد طبيعتها •

ولم يقف الأمر بالحاج طه محمد سليمان على الحــوار فى قــرية دار السلام والمزرعة التعاونية ، ولكن استمر الحوار بيننا فى مراسلات متبادلة حتى عدت مرة أخرى للدراسة الميدانية فى ١٩٨٣/٤/٤ ، والتى استمرت لمدة عشرة أيام ، وكان مسكنه مقــرا لاستضافتى ، مما أتاح لى معه زيارة بعض الأسر وأيضــا حــرية التجــوال بالقــرية لتسجيل شواهدى على الطبيعة •

وبعــد أن أنهيت دراستى الميــدانية كتبت تقــريرى ونشرته فى ١٩٨٢/١١/١ وأرسلت نســخة منــه الى « الحاج طه » الذى أرســل يدعونى لزيارة أخرى •

وعدت الى قرية دار السلام النوبية فى ١٣ فبراير ١٩٨٣ والتقيت بصاحب الدعوة ، وشيوخ القرية ، وشبابها،على مائدة مستديرة لمناقشة نتائج الدراسة ، وكنت على يقين أن المناقشة الجماعية لاشك أنها ستثير



صــــورة تجمـــع بين الباحث وشيخ قرية

دار السلام النوبية فى موقع المزرعة التعاونية

أفكار هذه الجماعة حول موضوعات جديدة ، أو تكشف عن أشـــياء لــم تتضمنها الدراسة .

لقد أسفرت الجلسة عن ملاحظة ، حول عدم ذكر الأنواط وشهادات التقــدير التى منحت للقرية ، ومزرعتها التعاونيـــة ، فى شخص شيخها الشيخ طه .

وبهذه المناسبة فقد سبق وأن منح السيد رئيس الجمهوريـــة نوط الامتياز من الدرجة الأولى للحاج « طه محمد » وذلك فى عام ١٩٧٤ بصفته رئيسا لجمعية تنمية المجتمع بالقرية . كما منحه وزير الزراعة شهادة تقدير عـــام ١٩٧٢ تقديرا لجهوده فى معاونة المجالس الزراعية على تأدية رسالتها فى المزرعة التعاونية ، وأيضا منحته وزيرة الشئون الاجتماعية عام ١٩٦٤ ميدالية تذكاريـــة لجهوده فى العمل الاجتماعى فى قريـــة دار السلام .

والملاحظ فى هذا الشأن حرص « الحاج طه » على استضافة زوار القرية ، فى داره ، ولفت الأنظار الى هـــذه الأنواط والشهادات ، التى وضعها فى أماكن بارزة ، فى حجرة الاستقبال . هـــذا بالاضـــافة الى احتفاظه بسجل خاص ، يسجل فيـــه زوار القريـــة انطباعاتهم فيه . وباستعراض محتوى هـــذا السجل نجد كلمات الاعجاب العديدة التى سجلهـــا أساتذة الجامعات ، وأعضـــاء الســـلك الدبلوماسى المصرى والأجنبى ، والقيادات الشعبية المصرية .

وأود هنا أن أشير أن هـــذه الدراســـة لم تجعل من نتـــائج شواهدها مسلمات للأخذ بها ، فقد كانت هناك من الأمور ما جعلنى أضعها موضع الشك ، وهـــذا ما دفعنى أن أتخطى الحدود الجغرافية للمجال المكانى للقرية حتى أستبصر بعض الحقائق من المسئولين فى مديرية الشئون الاجتماعيـــة بمحافظة أسوان ، وبعض قادة المجلس

المحلى ، وكبار السن من المقيمين بمدينـــة أســـوان ، الذين كان لهم اسهام المشاركة فى البنـــاء الاجتماعى للقريـــة ومشروع مزرعتهـــا التعاونية .

الدراســـة وأبعـــادها :

لا أستطيع أن أدعى لهذه الدراسة الميدانية أنها جاءت من خـــلال جهد « الباحث » الفردى ، والحقيقة التى تذكر ، ان هـــذا الجهد شارك فيه فريق معاون « للباحث » فى مجـــال جمع البيانات . وهـــذا الفريق يتكون من السادة : محمد حامد يوسف المدرس المساعد بقسم الاجتماع بكلية الآداب بسوهاج ، وحنفى محروس وأبو السعود ابراهيم المعيدين بنفس القسم من هـــذه الكليـــة .

أما عن طبيعة هـــذه الدراسة الميدانية ، فهى فى واقعها تجمع بين مجال الدراسات الأنثروبولوجية ، وبين مجال الدراسات السوسيولوجية، وتنقسم الدراســـة هنا الى مجـــالين :

المجال الأول ويتناول الفصـــل الثالث الذى يدرس مجتمع قرية دار الســـلام النوبية ، من حيث الوصف المكانى واختيـــار العينـــة ، والتركيب المهنى ، واللغة ، والدين ، والتعليم ، ومظاهر الملابس والحلى ، والزواج ، والأغنيـــة ، والنظرة للمولود ، والرعاية الطبيـــة ، وطقوس الوفاة ، والمجالس العرفية .

المجال الثانى ويتناول الفصـــل الرابـــع الذى يدرس المزرعـــة التعاونية من حيث الأفكار والأعمال التى قدمها حولها الرواد الاوائل ، وأثر تجربة المزرعة التعاونية فى دار السلام النوبية على مجتمع القرية .



صــورة تجمــع بين الباحث « والحاج طــه »
كبير شيوخ قرية دار السلام النوبية
بجــوار دار الضيافة

الفصل الثالث

مجتمع قرية دار السلام النوبية

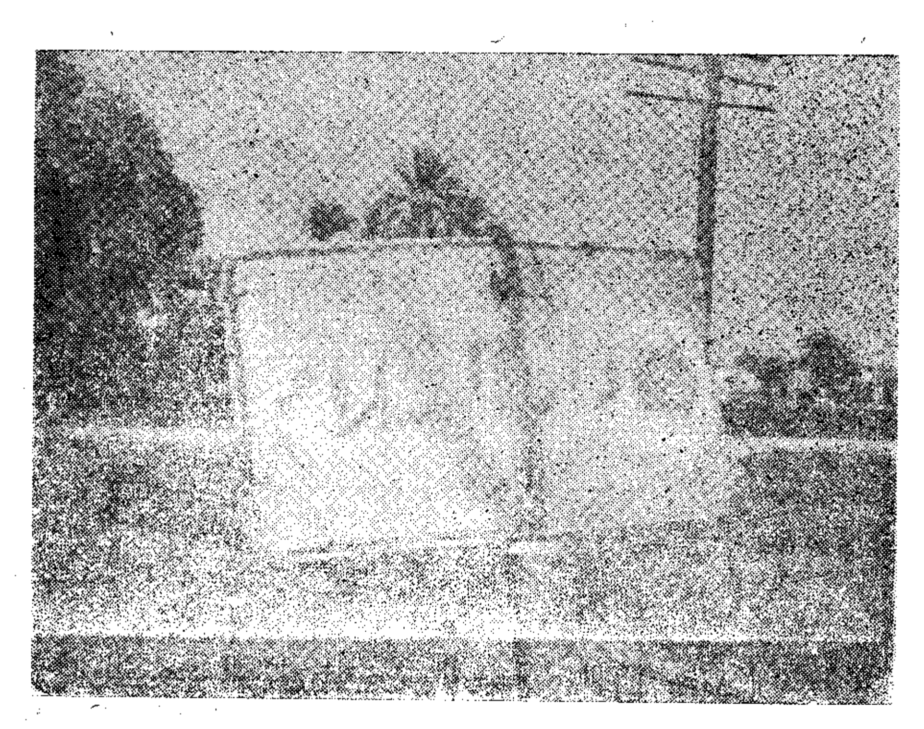
المكان : تقع دار السلام النوبية على مسافة ٣٠ كيلو مترا شمال مدينة أسوان ، ومسافة ٩ كيلو مترات جنوب مدينة «كوم امبو»، يحدها من الشمال قرية « دراو » التابعة لمركز كوم امبو ، ومن الجنوب قرية « بلانة » ، ومن الشرق قرية « أدنـدان » ومن الغرب نجـع الشيخ ابراهيم • ويمر الطريق الرئيسى الزراعى ، أسوان ـ القاهرة ، وخط السكة الحديد ، بجوار القرية •

ويقيم أهالى القرية من النوبيين « الكنوز » غرب السكة الحديد ، وفى أطراف القرية ، بينما يقيـم النوبيون « الفاتـديجا » شرق السكة الحديد •

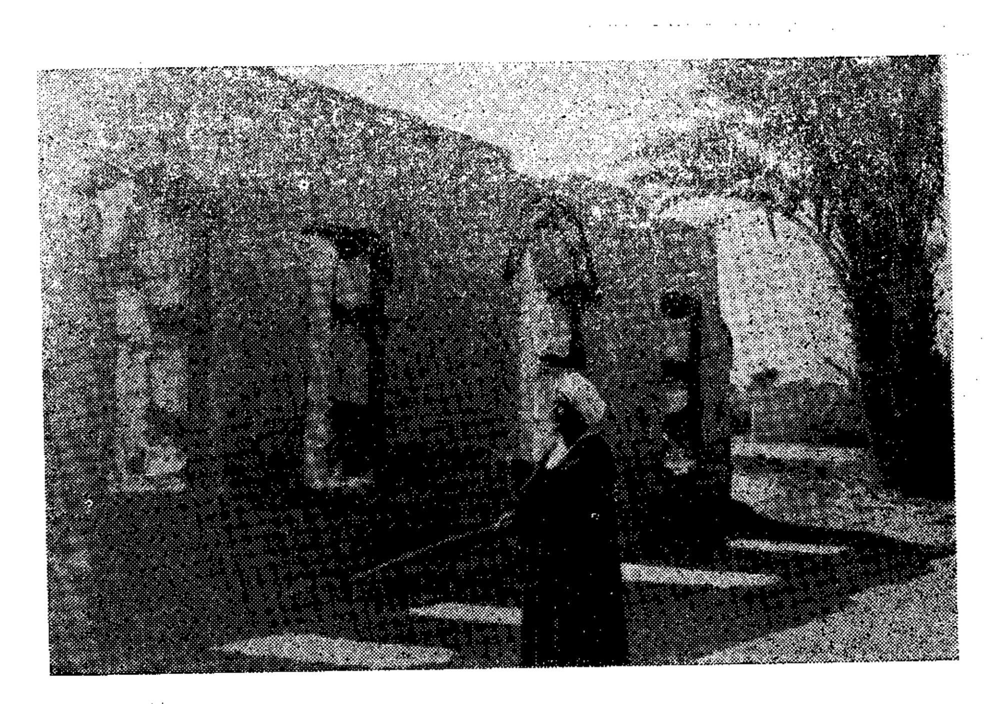
وتشكل قرية دار السلام النوبيـة وقريـة « بلانة » وقريـة « أدندان » مجلس قروى واحد ، مقره بلانة ، وهى تتبع اداريا مركز مدينة نصر •

ويبلغ عدد السكان المقيمين بالقريـة حوالى (١٠٥٠) نسمة ، يمثلون (٢١) قبيلة •

ومن المظاهر التى تلفت النظر فى مدخل القرية تلك المساكن المبنية من الطوب « اللبن » مسقوفة بعروق من الخشب ، وقد تهدمت هـذه المساكن ، وأصبح معظمها خاليا من سكانه ، وذلك نتيجة مهاجمة حشرة « الأرض » النمل الأبيض • ونتيجة لذلك أقامت الدولة (١١٨) مسكنا على هيئة وحدات تضم ما بين حجرتين وخمس حجرات ، بنيت بالحجر الأبيض • ويتوسط كل مسكن حوش سماوى ، وتحتفظ هذه المساكن بالطابع النوبى فى البنـاء •



صـــورة توضـــح المدخـــل الى قرية دار الســـلام النوبية بأسوان



صـــورة لاطلال منازل قديمة فى دار السلام النوبية
بعـــد أن قوضـــتها عشرة النحـــل الابيض



صـــورة لمبانى حديثة فى دار السلام النوبية



صـــورة أحـــد المساكن المتبقية من قرية دار السلام
النوبيـــة القـــديمة

ومساكن دار السلام النوبية جميعها مزودة بالمياه والكهرباء • والملاحظ أنه لا يخلو مسكنا منها من غير وجود « مزيرة » وصندوق تقليدى للتخزين ، وفرن يطلق عليه الدوكة ، هـذا الفـرن يستخـدم فى صنع « الكابيدا » وهو خبز أشبه بخبز الرقاق •

ومع هذا فأغلب هـذه المساكن بها ثلاجات ومراوح كهربائيـة ، وأفران وسخانات تعمل بالبوتاجاز •

وبالقرية مدرستان مشتركتان لخدمة تلاميـذ القريـة والقرى المجاورة ، الأولى مدرسة ابتدائية أنشئت عام ١٩٣٤ وبها حاليا سبعة فصول ، وصل عدد المقيدين بها (٢٧٨) تلميذا وتلميذة ، بينما أنشئت المدرسـة الاعدادية عـام ١٩٧٥ وبها الآن أربعة فصول تضم (١٣٥) تلميذا وتلميذة ، حسب بيان المقيدين بها للعام الدراسى ٨٢ / ١٩٨٣ •

وفى مدخـل القرية أقيمت وحـدة صحية ، بهـا طبيب مقيـم ، وممرضتان ، وثلاثة من العاملين • وبتوسـط القرية ، دارا للضـيافة ، بجوارها مبنى جمعية تنمية المجتمع الذى يضم دارا للحضانة ، وورشة للنجـارة ، ومشغلا للصناعات اليدوية أهدتهما « اليونسيف » للقـرية ، وبشغل المبنى أيضـا مكتبا للبريد والتلغراف والتليفون •

ويوجد بالقرية (٢٤) خطا تليفونيا داخليا بمساكن القرية يخدم المشتركين • وفى جنوب القريـة أنشىء مسجد على نفقة الدولة عـام ١٩٧١ ، وخصص به مكان لأداء شعائر الصلاة للنساء ، وتقوم احدى سيدات القريـة بتحفيظ القرآن الكريم فى هذا المكان لفتيات القرية •

وفى الطـرف الشمالى من القرية أقيم مركزا للشباب ، يمارس فيه أبناء القرية والقرى المجـاورة أنشطتهم الرياضية • ويعـد هذا النادى امتدادا للنادى الريفى الذى أقيم بهـا منذ عـام ١٩٤٦ •

العينة : تم اختيار أفراد العينة بنسبة ٢٠٪ تقريبا من عدد أفراد مجتمع القرية ، ويشكل « الفانديجا » نسبة ٩٨٪ منهم ، بعد استبعاد الفئة العمرية أقل من ١٨ سنة ، وبذلك يصبح لدينا من الذكور عدد (٩٠) ومن الاناث عدد (١١٨) ومن هذا يتضح أن نسبة الاناث يمثلن ٧٦٪ من أفراد العينة •

ويعلل « جون كندى » تفوق عدد الاناث على عدد الذكور الى وجود عدد من رجال القرية فى أعمال الصناعة والسياحة بمنطقة أسوان وأن ترددهم على أسرهم مرتبط بنوعية العمل والاجازات الى حد ، أنه أطلق على رجال هذه القرية زوار الاجازات (١) •

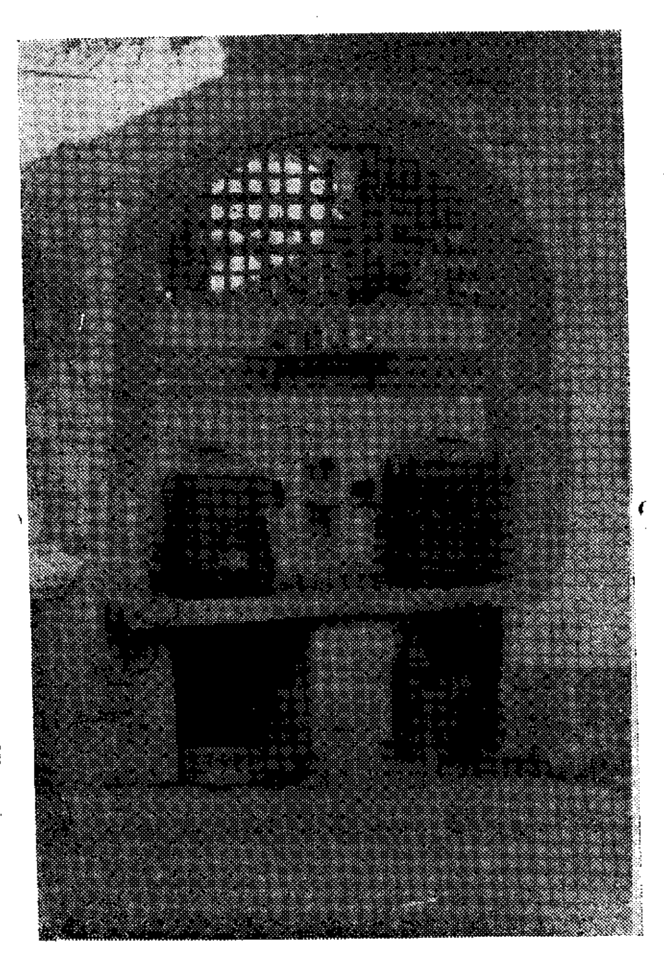
التركيب المهنى : توضح الحالة المهنية من أن نسبة ٤٧٪ من عدد المشتغلين من الذكور يعملون فى الوظائف الادارية بالمؤسسات العامة ، والمصالح الحكومية ، ٣٣٪ يعملون فى أعمال الخدمات العامة • بينما بلغ عدد العاملين فى الأعمال الفنية غير الزراعية ١٨٪ أما الذين يعملون فى الزراعة ، فقد بلغت نسبتهم من جملة أفراد العينة ٤٪ •

أما بالنسبة لعمل النساء فكانت نسبة اللاتى يعملن بالوظائف الحكومية ٣٪ أما اللاتى يعملن فى نشاط انتاجى فى اطار جمعية تنمية المجتمع فكانت نسبتهن ٦٠٪ ، وهؤلاء يعملن فى صناعة الأطباق وعقود الخرز والطواقى والمفارش ، أما اللاتى يعملن فى الزراعة فقد وصلت نسبتهن ٢٪ •

الدين : يدين مجتمع قرية دار السلام النوبية بالدين الاسلامى بنسبة ١٠٠٪ ويتمسك معظمهم بمواقيت الصلاة ، كما تحرص نسبة ٤٠٪ من النساء من أفراد العينة على صلاة الجمعة بالمكان المخصص لهن بالمسجد •

---

(1) John G. Kennedy., Nubian Cermonial Life, Studies in Islamic Syncrtism and Cultural Change, The American University in Cairo Press 1978. P. XXII.



صـــــورة للزيرة فى منزل نوبى

أما بالنسبة للاطفـال فكان الواضـح حـرص الآباء على تنشئة أولادهم تنشئة دينية ويتضح ذلك من صحبهم الى المسـجد فى مواقيت صلاة الجمعة ، وتشجيعهم على حفظ آيات من القرآن الكريم •

وكان الشيء الملاحظ أنه حين يقدم أحد الآباء أبناءه ليعرفنى بهم، كان يحرص على استعراض ابنه لما يحفظه من القـرآن الكريم ، وبهذه المناسبة فان أغلب الآباء يطلقون على أبنائهم أسـماء الرسـول عليـه الصلاة والسلام وصحابته كما يطلقون على الفتيـات أسـماء زوجات وبنات وحفيدات رسول الله •

وحينما تناولت الدراسة سؤالا حول الطرق الصـوفية التى تتبعها أفراد العينة ، فكانت نسبة الذين يتبعون الطـريقة المرغنيـة ٦٥٪ أما

الذين يعتنقون الطريقة الشاذلية فجاءت نسبتهم ٢٪ • أما باقى العينة فلم تكن تتبع أيا من هذه الطرق •

التعليم من الظواهـر الشائعـة فى قـرية دار السلام أن نسبة التعليم لفئات السن أقل من ١٨ سنة ، قد وصـلت نسبتها الى ١٠٠٪ ، أما فئات السن أكثرمن ١٨ سنة — يقرأون ويكتبون — فقد وصلتنسبتها الى ٩٩٪ تقريبا أما ما يقلل من هذه النسبة فهو وجـود رجـل واحـد « أمى » تجاوز الثمانين من عمره ، ينتظر أهل القرية وفاته حتى يحتفلوا بآخر « أمى » من الرجال فى القرية •

أما بالنسبة للاناث أقل من ١٨ سنة فتصـل نسبة التعليـم بينهن الى ٧٥٪ ، أما اللاتى يزدن عن ١٨ سنة — يقـرأن ويكتبن — فتصـل نسبتهن الى ٥٨٪ ويمكن أن تزيد هذه النسبة اذا ما عـزلنا منها كبـار كبار السن من السيدات من فئات العمر (٤٠) عاما فأكثر لتصل النسبة العامة الى ٧٥٪ •

وحينما تم حصر الذين حصلاوا على مؤهلات عليا من أبناء القرية

حتى تاريخ هذه الدراسة . اتضح أنهم خمسة أفـــراد من بينهم فتــــاة واحدة ، أما عدد الذين حصلوا على مؤهلات متوسطة فقد وصل عددهم الى ٣٨ فردا من بينهم ١٢ فتاة .

الملابس والحلى : يناسب زى النوبيين طبيعة جـــو المنطقـــة التى يعيشون فيها ، فالرجـــال يلبسون الجاباب الابيض الفضفاض ويغطون رؤوسه مبعمامة بيضاء كبيرة تقيهم حرارة الشمس ، ويعد هذا اللباس موحدا بين الرجا ليلبسونه بعد انتهاء العمل ، وفى المناسبات المختلفـــة فى الأفراح والمآتم وصلاة الجمعة ، وفى الأعياد والمواسم .

أما النساء فيرتدين خارج المنزل (الجرجار) وهو عبارة عن رداء من القماش الأسود شبه شفاف يلامس الأرض ويلبس فوق رادء آخر من لون زاهى .

أما كبار السن منهن فيلبسن أيضا خارج المنزل جرجارا من قماش، اسمه (بوال) من الدمور الأسود .

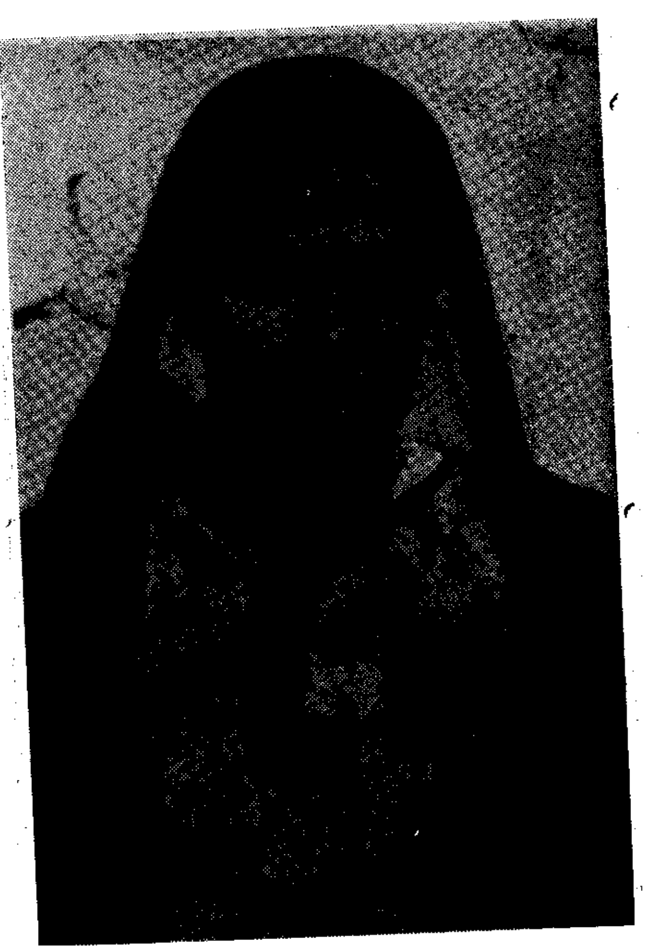
وتعتبر الحلى بالنسبة للمـــرأة من مظاهـــر الافتخار تستعرض به فى المناسبات فتضع منها على جبينها قطعة ذهبية تسمى «قصة الرحمن» كما تضع على صدرها أيضا قطعة أخرى تسمى «البيبه» وهى عبارة عن قلادة بها ست أقراص مستديرة مسطحة من الذهب كمثرية الشكل بدون نقوش يتوسطها قطعة ذهبيـــة كبيرة مستديرة (ما شـــاء الله) عليهـــا زخارف بارزة ، والمرأة النوبية تعتـــز بحليها ، وتحتفظ بم ولا تفرط فيه أمام أشـــد الظروف ، لأن المتصرف فيه بالبيع يعتبـــر أمـــرا مشينا بين الأهل والمعارف .

الزواج : يتضح من مظاهر الزواج فى قـــرية دار السلام النـــوبية ذلك الترابط الاجتماعى بين جماعتها ، فقد كشفت الدراسة عن ٧٦٪ من المتزوجين قـــد اختاروا زوجاتهم من القبيلة التى ينتمون اليها ، ١٨٪ اختاروا زوجاتهم من قبائل أخرى من نفس القرية ، بينما الباقى قـــد تزوج من خارجها .



صـــورة فتـــاة ترتدى زى ((الجرجار))

مجتمــع قرية دار السلام النوبية



صورة فتـــاة نوبية ((فاتديجا)) من دار السلام النوبية
ترتدى قـــلادة ((الببيـــة)) الذهبيـــة

والواضح أن نظـام الزواج فى القرية له أعرافه المستقرة ، فحين يرغب الشاب فى الـزواج يفصح عن رغبتـه لأحـد والـديه • وبعد استعراضها أسماء الفتيات بترتيب القرابة يستقر الرأى على واحـدة •

ويدعو الأب واحد أو اثنين من كبار الاسرة أو القبيلـة للقاء والد العروس أو من يتولى أمرها ، وفى حالة قبوله يطلب مهلة ، وهذه المهلة الهدف منها استطلاع رأى أسرته ، خاصة المقيمين منهم خـارج حدود القرية ، ليعطى الفرصة لمن يريد لشبابها أن يتقدم لمصاهرته •

وفى الموعد المتفق عليـه مـع والد العروس للرد بالقبول يجتمـع والدا العروسين ، وتعلن الموافقة على المصاهرة بقراءة الفاتحة ، والاتفاق على موعد تقديم الشبكة • ويطلق عليها « أيدوس » وفى يوم « الشبكة » يصحب والد العريس بعض أفراد أسرته ، ويتجهون الى منزل العروس ويقدمون الى والدها مبلغا من المـال يتراوح ما بين ٢٥ الى ١٠٠ جنيها ، وبعض الهدايا العينية ، وقطعـة من الحلى الذهبيـة تتمثل فى قـلادة أو أساور ذهبية •

وقبل موعد الزفاف يحتفى بليلة الحناء ، فيخرج من بيت العروسين طبقان من الخوص بهما حناء معجونة بمـاء الورد وحولها الشـموع ، يحملها الفتيات ، ويطفن بها القرية بين الأغانى والزغاريد ، ثم يعدن بعد ذلك الى بيت العريس والعروس ليبدأ احتفال الأسرتين والاصـدقاء ، بخضبهما بالحناء ، وتوزيع بعض منها على المدعويين •

وفى ليلة الزفـاف يتوجـه العريس وصحبه الى منزل العروس ، ويعقد عقـد القران ، ثم يقدم للمدعويين البلح والفشـار من الأزره ، والشربات •

بعـد ذلك يقـدم العشاء ، والطريف ان اعـداد العشـاء يتولاه الرجال ولا تشارك فيـه النساء ، والهدف من ذلك ترك المجال للسيدات للتزين ومجاملة أهـل العروسين •

تبدأ بعـد ذلك مظـاهر احتفـال الزفاف بتخصيص « كوشـة » للعروسين أمام منزل العروس ، مكان الدخلة ، ويبدأ تجمع أهل القرية للرقص والغناء • ومع ضربات الدفوف التى يقوم بها ثلاثة من الرجال ، يبـدأ رقص الرجال والنساء • فيقف الـرجال فى عـدد من الصفوف يتقدمهم الشباب ، وكلهم يلبسون الجلباب الابيض والعمامة البيضاء ، وأمامهم صفوف النساء تتقدمهن الفتيات فى سن النضج والزواج ، وفى الوسط رجل يقود تنظيم الصفوف ، وبين كل فترة وأخرى ينزل أقـرب الناس للعروسين من كبار السن من الرجال والنساء ليتوسطوا فـريق الرقص ، برقصة جماعية •

وأثناء هـذه الرقصات ينسحب العريس وعروسـه الى غرفتهمـا الخاصة بمسكن أسرة العروس وتستمر الرقصات حتى مطلع الفجر •

ويحكى شيوخ القرية من الرجال والنساء عن ذكرياتهم حول ليلة الزفاف فترة الأربعينيات والخمسينيات ، أن العريس كان يـزف وبيده « كرباج » وعلى ذراعه سكين ذو حدين ، وقـد سار خلفه حامل الكرسى لجلوسه اذا تعب ، يتقدمه حامل المبخرة ، ثم يتوجه الركب جميعه الى النيـل للتبرك بمائه • ثم يتجهون الى بيت العروس للاحتفال بمظاهر الزفاف بالغنا ءوالرقص •

وكانت حجرة العرس تشهد أيضـا طقوسا خاصة ، فكان العريس يدخل الحجرة وبيده عصـا على رأسها صليب خضب بالحناء ، وكانت العروس تجلس فى ركن من الحجرة تحت غطـاء ، وأمامها ثلاث أوانى ، احدهما به عينات من أنواع الحبوب ، وثانيهما به سكر ، وثالثهما به لبن •

ويركن العريس عصـاه ثم يأخـذ من الحبوب ويرش عروسـه فتبادله عملية الرش ، ثم يأخذ من السكر ويرشها فتبادله ذلك ، بعد ذلك يأخـذ رشفة من اناء اللبن ويسقى منه عروسه رشفة أخرى •

أما تفسير كبار السن لهذه الطقوس فيرجعهـا بعضهم الى عادات جاءتهم بالميراث من حضارات فرعونية ومسيحية •

والواقع ان هذه الطقوس والعادات ، بدأت تتلاشى بعـد الهجرة والتهجير نتيجةزيادةفرص التعليم للنوبيين،وتأثير الاعلام فيهم،والمحكات الثقافية مع المجتمعات الجـديدة التي تشابكت مصالحهم اليومية معهم •

ومن مظاهر المجاملة ، نثر العطور على المدعويين ، فيتقدم الشباب فى شبه طابور يحملون زجاجات العطور ، وينثرون ما بها على الجالسين ، وتتوالى هـذه العملية حتى انتهاء احتفال العرس •

ومن أغانى الأفراح الجماعية ما يغنى للعريس وللعروس بلهجة نوبية • ومن الطريف ان الفتيات اللاتى يتغنين بها ، يرددنها وراء كبار السن دون أن يعرفن ما تعنيه الأغنية •

وسأنقل هنا هـذه الأغانى بمعانيها النوبية الى اللغة العربية • فبالنسبة للعريس تقول الأغنية :

ادبح لى بقرة ياسيدى ، ادبح لى جمل ياسيدى ••

ليه ياسيدى ؟

زى أبوك ••

زى عمك ••

زى جدودك ••

زى خالك

زى أخوك ••

وبالنسبة للعروس تقول الاغنية :

بتدلع على مال أبوها ••

وفى أراضى عمها وفى أراضى خالها ••

وفى أرض جدها ، من فوق ومن تحت ••

وبهـذه المناسبة هناك أغنية فردية « كنزية » تقول :

يا سمراء يا حبيبتى ••

الناس بيتكلما علينا ••

وأنا داخل عندكم بيتكلموا ••

وأنا خارج من عندكم بيتكلموا ••

ايه رأيك ! •• قلتى ايه !

نخلص موضوعنا •• ولا أسيب لك البلد واهاجر •

وبعد احتفالات العرس تخصص سيده عجوز يطلق عليها « دشى » لخدمة العروس تستمر معها لمدة أسبوع فى بيت أسرتها • وبعد ذلك يأخذ العريس عروسه ويزور الاقارب والاصدقاء ، الذين يقدمون له الهدايا خاصة الطيور •• وبعد ذلك يأخذها وويتجه الى بيته •

ومن مظاهر التعاون فى هذه القرية المشاركة فى اعداد بيت الزوجية لغير القادرين منهم ، وذلك بأن تتبرع كل أسرة بما يزيد عن حاجتها ، من قطع أثاث أو بعض المفروشات أو الادوات المنزلية وتقدم للعروسين ، أو يقدم مبلغا من المال ، وفى كل الاحوال يقوم بتنظيم هذه العملية شيوخ القرية •

النظـرة للمولود :

لقد كشفت اتجاهات العينة نحو نوع المولود على تفضيل الذكور على الاناث • فنجد أن نسبة ٧٥٪ من الرجال يفضلون الذكور على الاناث وتتضح هذه الحقيقة أيضا من مظاهر الاحتفالات بهذه المناسبة• وبالنسبة للمولود الولد يقام حفل دينى تقام فيه الاذكار فى السبوع وتذبح فيه الاغنام ، أما بالنسبة للانثى فيكون الاحتفال محددا بتوزيع الحلوى على الاطفال فقط ، كما يتضح أيضا من اتجاهات باقى نسبة العينة ، أنهم لا يفرقون بين الذكور والاناث •

الرعاية الطبية :

بالرغم من وجود طبيب مقيم بمستوصف القرية ، الا أن القابلة ما زالت تمارس عملية الولادة للنساء وختان الاناث • أما ختان الذكور فيتولاه الطبيب •

ومع ذلك فما زال أهل القرية يعتمدون على الاعشاب فى علاج كثير من الامراض وفى اعتقادهـم أن حلف البـر يشفى الامراض المعوية والدمسيسة تعالج أمراض الكلى والمثـانة ، والحرجل يستخدم فى علاج الامساك ، كما يستخدم قشر الرمان فى علاج الدوسنتاريا •

كما يمارس بعضهم عملية « الحجامة » و « الورتاب » • والحجامة عبـارة عن عملية تشريط فى الجانب الأعلى من وسط الظهر ، لاستخراج الدم لعلاج ارتفاع ضغط الدم • أما « الورتاب » فهو عمليـة تشريط فى وسط القدم ، لعـلاج الأمراض المعوية •

شـعائر الـوفاة :

يقوم أهل القرية فى حالة وفاة النساء بخضب كل جسدهن بالحناء والعطور ، ويغطى النعش بقوس من الجريد الاخضر لتميزه عن الرجال• والشيء الغريب بالنسبة للرجال هو طريقة الكفن،فيعد الكفن من سروال وصـديرى وعمامة من القمـاش الأبيض ، ثم يكفن بالكفن الشرعى ، بعـد ذلك يقوم أهل المتوفى بتقبـل العـزاء فى المضيفة ، ويوزع البلح ومشروب القرفة والشاى ، ويقوم أهـل القرية بتقديم وجبات الطعام لأهل المتوفى والمعزيين لـمدة ثلاث أيام •

أما بالنسبة للمقابر ، فلا تعلو على سطح الأرض ، وتتميز بقطعة من الحجـر •

المجالس العرفية :

تتشكل هذه المجالس من كبار السن من أهل القرية ، والتى يحتكم اليها أهل القرية فى معظـم أمورهم الهامة • وحسب شواهد الدراسـة فلم يسبق أن خرجت مشكلة من بين أهل القرية عن اطار هذه المجالس ، ومعظـم المشكلات تجـد الحلول المنصـفة فيهـا ، كما أن قراراتهـا تحظى بالاحترام وتوضع موضع التنفيذ •

الفصل الرابع

المــزارع التعــاونية

المجالات النظرية والتطبيقية :

تصور فلاسفة الاغريق النظم المثلى للحياة الاجتماعية فيما تمثله فى جوانب عملية واخلاقية للتعاون الاجتمــاعى ، ففى فلسفة أفلاطون مثلا نجده يقول « ان الجماعات ظهرت قبــل كل شىء نتيجــة للحاجات البشرية التى لا يمكن اشــباعها الا حين يكمل النــاس بعضهم بعضا ، فللنــاس حاجات كثيرة ، ولا يوجــد من يستطيع العيش على أســاس الاكتفاء الــذاتى ، ومن ثــم كان لزاما ان ينشد كل من الآخــر العون والمبادلة •

ويمثل هذا التطور القى افلاطون ضــوءا على ناحيــة من نواحى الجماعة عنده على أساس انها نظام الخدمات يقوم فيها كل عضو بقدر من الاخذ والعطاء ، بمعنى أن عليه خدمات يجب أن يؤديها بالتعاون مع غيره ، واذا كانت الدولة تكفل له الحرية فليس الغرض من ذلك مجــرد تمتعه بارادة حرة • بل الغرض من ذلك تمكنه من أداء الخدمات المطلوبة•

أما أرسطو ، فقــد تصور المجتمــع بمنهج آخر ، يعرف بالمنهج التكوينى ، فأبرز ظاهــرة التعاون فيه على انهــا حقيقــة لا بد منهــا فى تكوينه ، ووصف الانســان بأنه حيوان ســياسى ، وكان يعنى بذلك انه مدنى واجتماعى الطبــع ذلك لأن الانســان لا يمكن أنه يتصــور وحــدة منعزلا مطلقا ولهــذا فــلابد ان يوجــد فى جمــاعة • ويرى « أرســطو » أن الأسرة ــ لا الفرد ــ وهى الوحــدة الرئيســية فى المجتمع ، والأسرة مع غيرها من الأسر تتكون منها القرية « واذا تعددت حاجــات القرية واحتاجت الى غيرها من القرى تكونت عن ذلك الدولة •

ومعنى هـذا ان أرسطو يرى ان المجتمع والدولة لا يمكن لاحدهما ان يقوم الا على أساس التعـاون بين الأفراد ولولا هـذا التعـاون لمـا كان المجتمـع(١) •

لقـد كان لهذه الفلسفات السياسية القديمة من العوامـل التى أسهمت فى تشكيل النظريات الحديثة للتنظيم التعـاونى والذى كان من

أبرز أصحاب هـذه النظريات « سيسوندى وفورييه » أما الذين حولوا تصوراتهم الى واقع يمارسون من خلاله تطبيقات عملية ، فكان أهمهـم «روبرت أوين» و «أبرام كومب» و «وليم تومسون» و «موسى العلمى» •

وحينما أحاول استعـراض أفكار هـؤلاء ، ومنجـزاتهم ، فانما أحـاول الوصول الى ادراك درجة التشابه والاختـلاف بين أفكارهم وتجاربهم ، وأفكار جماعة النوبيين من أفراد عينة الدراسة ، وتجربتهم أيضا فى اعـداد المزرعة التعاونية فى دار السلام النوبية ، ومن هؤلاء نجـد « سيمسوندى » (١٧٥٣ — ١٨٢٤) الذى وضع اطار تصوريا لتوزيع عائد الانتاج على المجتمع ، وذلك بتوزيع ملكية وسائل الانتاج على المنتجين ، ولقد شجعه على أفكاره هـذه ، النجـاح الذى أحرزه الفلاحون الفرنسيون فى تحسين مستوياتهم وانتاجهم وزيادة المحاصيل بعـد ان مكنتهم الثورة من ملكيـة الأرض وخلصتهم من الاستغلال الأقطاعى • وأشار أيضا الى الانجازات التى حققها صغار الفلاحين من نجاح فى سويسرا وبعض أجزاء ايطاليا ، وأرجع ذلك الى ظروف الحياة الحرة — الى حد ما — التى كانوا يعيشون فيها •

المشاركة فى تأجير الأراضى ، وهو النظـام الذى يتقاسم فيه الفلاحون مـع أصحاب الأرض ايراد محصول الأراضى ، على أن يزود صـاحب الأرض الفلاح برأس المـال اللازم ، وكان يفضل دائما أن يتمكن الفلاح الصغير بفـلاحة أرضـه طبقا لأفكاره ، وبالتالى يجنى ثمار نشاطه وهو

---

(١) كمال حمدى أبو الخير : النظم التعاونية فى الدول المختلفـة . مكتبة عين شمس . القاهرة . (١٩٦٧) . ص ١١ ، ١٢ .

مطمئن • نأتى بعد ذلك الى تصور «فوربيه»(١٧٧٢ — ١٨٣٧)الذى وضع نموذجا لقريته التعاونية،واقترح لها ١٦٠٠ من الأفراد يفلحون ما يقرب من ٥٠٠٠ خمسة آلاف فدان من الأراضى الزراعية،ويذهب فى ذلك،الى أن مثل هذا العدد يستطيع أن يكون فيما بينه علاقات اجتماعية طيبة ، وفى نفس الوقت لا يشكل عبىء التزاحم فى القرية •

وقد أطلق « فورييية » على مجتمعه اسم « فالانستير Phalanster » وهى تعنى فى اللفظ اليونانى كتيبة Phalanx ، وكان يريد لهذه الجماعات أن تعيش فى بناء ضخم مشترك ومجموعة من المبانى مجهزة تجهيزا كاملا بالخدمات المشتركة بما فيها دور الحضانة لرعاية الأطفال ، بيد ان السكان لا يعيشون معيشة مشتركة الا بقدر ما يريدون فلكل عائلة سكنها الخاص وحريتها فى أن تفعل ما يحلو لها فى الأحتفاظ بحياتها الخاصة أو استخدام المطاعم المشتركة • والأماكن العامة(١) •

لقد كان من رأيه أيضا ، وضع مكافآت خاصة مقابل المهارة والمسئولية والقدرة الادارية ، وان يسمح أيضا بفائدة على رأس المال المستثمر الذى يستخدم فى تنمية الفلانستير ، بل الواقع أنه كان تأمل أن يصبح كل شخص مستثمرا فى رأس المال المشترك على نطاق كبير أو صغير •

ويتصور « فوربية » أن تحقيق انشاء « الفلانستير » لا يمكن أن يتم الا بعيدا عن طريق الدولة وهيئاتها العامة ، ولذلك يقترح أسلوب التنفيذ عن طريق المشاركة بالتطوع ، وكان يناشد أصحاب رؤوس الأموال الاستجابة لمشروعه وان يتقدموا بأموالهم لتأسيس مجتمعات تعاونية محلية •

---

(١) Cole G.H.H., Socialist Thonght the Forerunners 1870 - 1850, Macmillons & Ltd., London. 1955. P. 70.

أما الذين حاولوا ان يضعوا تصوراتهم فى أطار تطبيقى ، فقد جاءت محاولاتهم فى أطار ايديولوجيات دينية ، ولكن فاعليتها لم تستمر الى ان جاء « روبرت أوين » رائد التعاونيات فقد قام بشراء قرية « نيوهارمونى » من اتباع « جورج راب » وهم شيعة دينية ، كانوا قد هاجروا الى أمريكا من المانيا فى عام ١٨٠٤ ، وأسسوا نظاما من الحياة المشتركة فى « نيو هارمونى » وعندما وصل « أوين » كانوا يريدون اعدادها واستغلالها • ومن ثم كانت لديهم نية البيع • واشترى « أوين » المستعمرة بأكملها ، وبدأ فى انشاء أول مجتمعاته الجديدة •

وكانت دعوته للمجتمع الجديد على أساس تنظيم الانتاج الصناعى والزراعى بأسلوب ديموقراطى ، الا أن المستوطنين اختلفوا فيما بينهم ، فتركها لتلاميذه ، ليصفوا المشاكل ، ويعيدوا تنظيم المستعمرة •

من الواضح أن الفروق الجوهرية بين أفكار « فورييه وأوين » تكمن فى معالجتها لرأس المال ، فقد دعا فورييه الى اضمحلال الأجور التى يتقاضاها الأفراد المختلفون ، والى تخصيص نسبة من العائد الكلى للانتاج لاولئك الذين استثمروا أموالهم فيه • وبذلك اعترف بمبدأ تنوع الربح على رأس المال ، بينما ذهب « أوين » الى انه ينبغى مكافأة رأس المال بمعدل ثابت أو بحد أقصى من الفائدة(١) •

لقد كان من نتائج فشل أفكار « أوين » انها لم تنشأ من صميم الحاجة الماسة عند هؤلاء الذين أشتركوا فيها ، بل كانت من وحى احلام الداعيين لحركة الاصلاح • وهذا أمر يجب أن يأخذ حظه من الاعتبار والتقدير لكل من يحاول ان يوجه مجتمعا مثاليا الى غايته • بمعنى أن

---

(١) Ibid., pp. 96 - 97.

عليه أن يقدر من هــم المشتركون فى هــذا المجتمع ، وقد كان « أوين » مبالغا فى التفاؤل عندما تصور ان الفقراء والعاطلين يمكنهم ان ينتظموا فى مجتمــع تعــاونى مثــالى ، ان الفقــراء والعــاطلين يمكنهــم أن ينتظموا فى مجتمع تعاونى مثالى ، ولكن يبدو أن الفقر والجهل يصحبهما فى بعض الاحيان أنماط أخــرى فى المستوى الخلقى والنضج الاجتماعى وبذلك يستحيل معه أن ينتظم الفقراء والجهلاء فى مجتمع يقــوم على المثل والقيم مالم يصحب ذلك رقابة ورعاية وتوجيه مستمر لبث الروح الجماعية فيهم •

ومن الذين أتبعوا نهــج « أوين » فى مجــال التطبيق « أبرام كومت» الذى قام بانشاء مجتمع «أوربستين orbiston » برأس مال قدره ٥٠٠٠٠ر٥٠ جنيه ك مقسم الى أسهم قيمتــه ٢٥٠ ج ك • وقــد ســاهم « جورج ميدى » الذ كان يعمل محررا بجريدة «الايكونومست» بنصيب كبير فى رأس المــال • وقــد أشــترى « كومب » مزرعة مســاحتها ٢٩٢ اكــرا (فــدان تقريبــا) وكان ابنه « أ• ح هاملتون » متحمسا للمشروع ، فساهم فيــه بمبلغ ١٩٫٩٥٥ ج•ك •

وكانت الفكرة تقوم على أساس أشتراك لفيف من العمــال تتراوح عددهم بين ٥٠٠ ، ٣٠٠٠ يعيشون معيشة مشتركة فى المستعمرة الواحدة ويخصص لهم بنــاء واحد على شكل مستطيل طوله ٦٨٠ قدما وعرضه ٥٠ قدما وأرتفاعه أربــع طوابق مقسمة الى مســاكن مستقلة يتوسطه قاعة محاضرات وبه مطبخ واحــد ومطعم واحــد للجميع ، ويخصص لكل عائلة مسكن من تلك المساكن وعلى كل عائلة ان تربى أطفــالها الى سن الثالثة ثم تعهــد بتربيتهم بعــد ذلك الى المجتمع • وعلى الوالدين الاشراف على أطفالهم فى أوقات الطعــام فقط •

كما خصص مبنى آخــر يتكون من خمس طوابق لاقامة الصناعات اللازمة وتأجير الأرض وما يمثلها من مبانى لاعضــاء مجتمع أوربستين ليقوم هؤلاء العمــال بعملية الانتــاج لأنفسهم ولحسابهم •

وفى مــارس ١٨٢٥ بــدأ فئات عــديدة من الأشخاص من شتى

أنحـاء انجلترا عملهم الجدى • وقد قبل معظمهم مبدأ الملكية الجماعية والدخـل المتسـاوى ، ولكنهم كانوا حريصين على تجنب المساهمة فى العمـل بجهد متساو ، فأنتشر الكسل بين أفراد المستعمرة ، وعم بينهم الاسراف وتعودوا القذارة كما ثبت بالتجربة ان تخصيص مطبخ ومطعم عام للجميع عمـل غير ناجـح ، وقد أدى ذلك الى تعثر بعض جوانب المشروع •

وبوفاة « كومب » فى أغسطس ١٨٢٧ أغلقت أبواب القرية نتيجة أفلاسها ومطالب الدائنين(١) •

بعد ذلك نأتى الى تجربة : « وليم تومسون William Thompson (١٧٨٠ — ١٨٣٣) وهو أحـد المعاصريين « لروبرت أوين » وقـد ورث مزرعة « كلونكين Clonnkeen » عندما بلغ الثلاثين من عمره ، وقد أوصى بها عند موته الى مديرى أعماله بشرط أقامة مجتمع تعاونى عليهـا •

لقد كان تصور «وليم تومسون» أنه لن يوجد مجتمع أسعد من الذى توزع فيه الثروة بين أعضائه بالتساوى • وان مثل هذا المجتمع قد يكون فقيرا ، ولكن اذا أراد ان يرتفع بمستوى رفاهيته ، فان عليه أن يعمل حتى يبلغ الانتاج أقصى ذروته • وكان من رأيه ان العمل مصدر الثروة ، وهو فى ذلك يقول :

« ان رأس المال ما هو الا عمل مدخر وان اثمان السلع فى السوق تحدد بمقدار العمـل الذى بذل فى انتاجها • وأنتهى الى ان العمـال وحـدهم هم العـامل الأساسى فى الانتـاج ، ولذلك لابـد ان يعود عليهم كل ما يأتى به الانتـاج من ثروة » • ويذهب « وليم تومسون » الى تأكيد أهمية انتظـام ومشاركة العمـال فى المجتمعـات التعاونية التى تدار بواسطة أعضـاء منتجين من بينهـم ، وبذلك لا يكون هناك

---

(١) كمال حمدى ابو الخير : المرجع السابق . ص ٤٨ ، ٤٩ .

من يستولى على الربح ، واذا استطاعوا أخيرا ان يمتلكوا الأرض ورأس المال الذى هم فى حاجة اليه ، فلن يكون هناك — حينئذ — من يقاسمهم ناتج جهودهم عن طريق الاتجار أو الفائدة • كما وينتج عن ذلك استبعاد البطالة والأنواع الأخرى للضياع الاقتصادى ، وذلك عن طريق الموازنة بين العرض والطلب ، والتقريب بين المنتجين والمستهلكين • وكان يرى ان هذه المجتمعات التعاونية بين العمال لا تستدعى وجود أموال ضخمة كما تصورها « روبرت أوين » ، ولذلك اكتفى « وليم تومسون » بخمسة آلاف أو ستة آلاف جنيه انجليزى لاعداد مشروعه •

الا أن الملاحظ ان « تومسون » فى جميع تصوراته لم يرشد العمال على الوسيلة التى يستطيعون بها تجميع مثل هذا المبلغ ، وكان يرى ان تفكير العمال فى أحداث الثورات لا يعود عليهم الا بالضرر، وان الواجب على العمال المتعاونيين ان يطالبوا الحكومة بحماية المنشآت التعاونية • وتوفى فى عام ١٨٣٣(١) •

مشروع جمعية التنمية العربية :

يرجع أصل المشروع الى المحاولات الأولى التى قام بها موسى العلمى عام ١٩٤٤ ، ١٩٤٥ بهدف تعاون واشتراك الجامعة العربية أشتراكا فعالا فى برنامج رفاهية القرية بفلسطين ، وفى الحقيقة كانت جهود «العلمى» من أجل مشروع جمعية التنمية العربية ، هو ايجاد وسيلة لايقاف التدفق المستمر فى نقل ملكية الأرض من العرب الى اليهود ، نتيجة الفقر والجهل ونقص التسهيلات الائتمانية والتأخر العام للفلاحين العرب ، لقد شكل « موسى العلمى » من ادارة هذا المشروع جماعة من القدس تتكون من شخصيات عربية

---

(١) نفس المرجع السابق • ص ٥٦ ، ٥٧ •

فلسطينية تحت اسم « جمعيـــة التنميـــة العربيـــة » ووافق أعضـــاء الجماعة على مقترحات « موسى العلمى » وتبرعت حكومة العراق بمبلغ ٢٥٠,٠٠٠ (مائتى وخمسون ألف جنيها استرلينيا) وكان هذا الاعتماد الأساسى الذى مول الجمعية فى عملها •

اشترت الجمعية لتحقيق فكـــرة ايجـــاد قرية نموذجيـــة تضـــع المستويات من أجـــل الاسكان القـــروى — قطعـــة كبيرة من الأرض بمنطقة جنين وقطعـــة أصـــغر فى وادى الأردن الأعلى • وقـــد وقعت القطعـــة الأولى فى أيـــدى الاسرائيليين عام ١٩٤٥ م وضـــاع الانفاق الرأسمالى والجهود التى بذلتها الجمعية من أجلها •

حـــاول « موسى العلمى » أن يحقق تجربته مرة أخـــرى فحصـــل على اذن من الحكومة الأردنية عام ١٩٤٩ فى تملك قطعة أرض — مساحتها ٥٠٠٠ آلاف فـــدان بهدف الاستصلاح فى الجـــزء الجنوبى من وادى الأردن شمال البحر الميت مباشرة • وهى من أشـــد الأمكنة انخفاضا •

لقد كانت هـــذه الأرض مسجلة على انها ميتة وبور ولم تكن هناك أى زراعة تنمو بهـــا الا بعـــد الأمطـــار القليلة « متوسط ثلاث بوصات فى العـــام » ولقد كانت هـــذه الأرض بمثابة الصحراء وكان جوها حارا وقفرا كالحـــال فى الجزيرة العربيـــة •

ان أول الحقائق السياسية التى أراد توضيحها « موسى العلمى »، وخاصة بالنسبة لمؤسسة الأمم المتحدة المسئولة عن مشروعات الاعانة والتعمير ، انه من الضرورى — قبـــل استبعاد أى مساحة من الأراضى باعتبار أنها غير ملائمة للاصلاح بسبب عدم وجود المياه أو أى سبب آخـــر ـــأن تكتشف امكانياتها بالكامل ، لقد كانت هيئة الأمم المتحدة لاغاثة اللاجئين وتشغيلهم ، على الرأى القائل،بأن وادى الأردن لا يقدم أى أمكانيات جـــذابة لتنظيم حيـــاة اللاجئين • كما أنها ناصرت الرأى القائل بتحويل مجموعة اللاجئين الى سوريا والعـــراق وليبيـــا •

وهـذا الرأى مؤسس على حقيقة انه لا توجد ميـاه كافية لجعل وادى الأردن قابلا للزراعة وخاصـة فى الجزء الجنوبى منه .

وتبعـا لذلك فقـد قامت جمعيـة تنمية المجتمع بتجـارب حفر الآبار وكانت النتائج مشجعة بعـد اكتشاف الميـاه على عمق يقل عن مائة قـدم به وكان حلو المذاق به أقل ما يمكن من الملاحة وكان وافرا وغـزيرا .

ومنذ ان حفرت البئر الأولى فان ٢٤ بئرا أخـرى قد تم حفرها بعـد ان تسلمت الجمعيـة فى عـام (١٩٥٣) آلة حفر عميقة كهـدية مشتركة من شركتى «التابلاين والارامكو» ، ولقد بلغ متوسط التدفق من كل بئر منتجة نحو مائة متر مكعب فى الساعة ، وبالرغم من الصعوبات التى كانت تواجهها الجمعية من عجز ميزانيتها لشراء أنابيب ومحركات للآبار الأخـرى .

فقـد أمكن للجمعية ان تبدأ زراعة الأرض التى تحت يديها وأمكن استصلاح ٢٥٠٠ دونم (٦٢٥ فدانا) اعـدت للزراعة بالأضـافة الى مزروعات هـذه المنطقة والتى تمثل ١٦٠٠٠ شجرة من أشجار الغابات ، ١٠٫٠٠٠ شجرة موز ، ٥٠٠٠ شجرة موالح ، ٨٠٠٠ شجرة عنب ، وهى تعطى أكلهـا باستمرار وذلك بالأضـافة الى محـاصيل ناضجة بدرجة كبيرة من الخضروات والحبوب والقطن وحشائش تغذية المواشى .

ولقد ساعدت الخصوبة الشديدة للأراضى والميـاه الكافية وشدة الحرارة على بلوغ نتائج مدهشة ،وبذلك تغير وجه الطبيعـة بالواحات الخضراء التى خلقتها الجمعية فى مـدة تزيد قليلا على ثلاث سنوات .

ووفقا لذلك فقـد أمكن تحقيق أول الأهداف التى وضعها « موسى العلمى » والجمعية فى اكتشاف مصـادر الميـاه وقابلية الأرض للزراعة ولقـد كانت احـدى النتائج المباشرة تنشيط المشروعات الفردية للبحث

عن الميـاه الى جوار أراضى الجمعيـة • اما الحقيقة الثانية فقد كانت توجيـه أنظـار كل من اللاجئين والحكومات العربية الى وجود تصرف بديل عن استمرار بقاء اللاجئين فى المعسـكرات ، حتى يمكنهـم العودة الى أوطانهم ، بـدلا من البطالة التى يعيشونها فى المعسـكرات ، وحتى لا يكونوا عبئا اقتصاديا على الدول • وبالتـالى فمن الممكن عونهـم فى تنمية المنـاطق المتأخرة حتى يتحولوا الى أعضـاء منتجين فى المجتمـع واحترامهم الذاتى كمخلوقات بشر •

لقد كانت الفكرة الأصلية للجمعية ، ان القرية التى تبنى على موقع المشروع ينبغى أن تكون قرية تعاونية، وانه ثمة اتمام استصلاح الأراضى، فان اللاجئين المقيمين يكونون مجتمعا يحكـم ذاتيا • ومـع ذلك فقـد تدخلت العوامل الشخصية من أجل تعديل سياسة الجمعية •**فأولا** ورغم الحماس نتيجة لاكتشاف المـاء ، فقد ابدى اللاجئون عدم الرغبة فى ترك معسكراتهم والاستقرار فى المشروع ، لقد كانوا مترددين فى المخـاطرة بفقـد حصصهم التموينية عن طريق ايجاد العمـل الذى قـد لا يدوم حسب تقـديرهم ، وقبـل كـل شىء ، فقـد كانوا يخـافون من انه بالاستقرار فى المشروع فقـد يفقدون بعض حقوقهم نحو بيوتهم التى توجد باسرائيل أو يفقدون التعويض عنها ، لقد كان شاغلهم يتمثل فيما فقدوه لا فيما يمكن أن يحـل محله • **وثانيا :** فان مشـكلة جـديدة تظهر بين اللاجئين بسبب وجود عدد كثير من الأطفال الذكور والاناث لا يتيسر لهم اطلاقا التسهيلات التعليمية أو يتاح لهم القليل منهما وينشأ هؤلاء فى عالم لا يمنحهم وطنا أو مستقبلا أو أصـلا • **وثالثا : فلقد** كان هنـاك أمكانيـة متزايـدة بعـد الكشف عن الميـاه الجوفيـة ، والاهتمـام المتزايـد من جـانب الخبـراء الـدوليين والمهنـدسين بمشروع نهـر اليرموك حتى ان وادى الأردن سيصبح مكانا لتنميـة

وأسعة المدى ، وهــذا سوف يخلق الطلب على الفلاحين من ذوى المهارة التى تعين الزراعة فى وادى الأردن وعلى الفنيين والأعمــال والحرفيين الذين سيكونون مطلوبين لتكوين بيئة جــديدة •

لقد اسهمت هــذه العوامل الثلاثة فى اقنــاع « موسى العلمى » وجمعيــة التنميــة العربية تغيير اتجــاه هــذا المشروع من ان يكون زراعيــا أساسا ليصبح مشروعا تعليميا(١) •

تجربة مزرعة دار الســلام النوبيــة :

بدأت تجربة مزرعة دار السلام النوبيــة مــع وصــول أهــالى القرية الى موطنهم الجــديد ، فقد بذلوا عــدة محــاولات فى استغلال الأراضى الزراعيــة الجــديدة • وكانت هــذه المحــاولات فــردية ، وقــد اتضح لاهالى القرية ان هــذه الأراضى تفتقر للميــاه اللازمة للرى نتيجــة لوقوعها فى الناحية الشرقية للطــريق الرئيسى بعيدا عن مصدر ميــاه الرى • واستمرت محاولات الاهالى لاستغلال الأراضى الزراعية الجــديدة سنوات طويلة ، وقــد حــاول الكثير منهم الحصول على الميــاه اللازمة للرى عن طريق حفــر الآبار وصلت الى ٣٣ بئرا ، وأقامة السواقى لرفــع الميــاه ورى الأراضى •

لقد جــاءت المحــاولات الأولى للنوبيين فى استصلاح الأراضى باعــداد بعض الاجزاء من هــذه الأراضى للزراعة لان ميــاه الآبار كانت شحيحة مما أدى الى عــدم قــدرة السواقى على توفير الميــاه اللازمة للرى ، الا لعدد قليل من الأفدنة ، ومما زاد المشكلة تعقيدا أن مياه الآبار كانت تحتوى على كميــة كبيرة من الامــلاح بالدرجة التى

---

(١) س. حورانى : مشروع جمعية التنمية العربيــة فى اريحــا ـــ والاردن . دراسة فى سلسلة الالف كتــاب . العــدد ٦٦٧ عنوانه التغير الاجتماعى والتنمية الاقتصادية . الناشر مؤسسة سجل العرب . (١٩٦٧) . ص ٤٣٥ ـــ ٤٤٤ .

أصبح من الصعب معها انتـاج محاصيل جيـدة ، ومع ذلك لم ييأس البعض ، فى محاولاته عـدة سنوات ، وفى عـام ١٩٤٠ بذلت محاولات أخـرى لاستصلاح الأراضى وزراعتها ، وقـد قام احـد الاهـالى بشراء مضخة لسحب الميـاه ، الا أنه نتيجـة لارتفـاع تكاليفها مـع قلة الميـاه التى تسحبها المضخة ادى ذلك الى صعوبة تعميمها •

لقد أدى فشل أهـالى القـرية فى عمليـات استصلاح الأراضى الزراعية وضياع مدخراتهم الفردية ان هاجر كثير من الأهالى سعيا وراء الرزق ، حتى يستطيعوا أن يوفروا لعائلاتهم مصدرا للدخل ، واتجـه معظم الأهالى الى تغيير مهنهم الزراعية والالتحاق بمهن أخرى •

وكان نتيجة لهجرة الأهالى وتغيير مهنهم ، انقطاع الصلة لمعظـم أهالى القرية بالزراعة لفترة طويلة من الزمن ، الأمر الذى أدى الى ان أصبحت الأرض لا تجد من يقوم بزراعتها ، مما كان له الأثر فى المساعدة على انشاء جمعية تعاونية زراعية بالقرية ، ساهم الأهالى فى تكوينها ، وقامت هـذه الجمعية بالاشراف والادارة للمزرعة الجماعية ، وعملت على تعويض النقص فى الأيدى العاملة بالزراعة ، عن طريق توفير هذه العمـالة من القرى المجـاورة لهم •

مشـكلة تفتيت ملكية الأراضى الزراعيـة :

لقد ظهرت مشكلة أخرى واجهت أهالى قرية دار السلام النوبية وهى مشكلة التفتيت فى ملكية الأرض بتوالى الاجيال•حيث ان التفتيت فى الأراضى الزراعية يعمل على اعاقة استخدام الأرض الزراعية الاستخدام الامثل وهى من العناصر الأساسية فى عناصر الانتاج ، وبالتالى تعمـل على الحد من الكفاءة الانتـاجية لمزرعة نتيجة ارتفـاع تكاليف الانتاج الحدية لكل وحدة من وحدات عناصر الانتاج المستخدمة •

ولمواجهة مشكلة التفتيت في الأرض الزراعية شهدت القرية عدداً من الاجتماعات واتصالات بين أهالي القرية المقيمين بها وبين من استقر منهم بالمدن، وقد طرح للمناقشة عدة اقتراحات للوصول الى استغلال أفضل الطرق لمواجهة المشكلة وقد تمثلت المقترحات في النقاط الآتية:

أولا: تأجير الأراضي الزراعية — بعد استصلاحها — لمزارعين من خارج القرية بهدف الحصول على القيمة الايجارية السنوية لهذه الأراضي بصفة مستمرة مما يتيح للأهالي دفع قيمة تكاليف استصلاح الأراضي بجانب الانتفاع بما يتبقى كدخل ثابت دون قيامهم باستغلال الأراضي ... [illegible]

لم يلق هذا الاقتراح قبولا من الأهالي وذلك خشية عجزهم عن اخراج المستأجرين من الأراضي بعد وضع اليد عليها بجانب عدم ضمانهم الحصول على ايجار مناسب خاصة وأن الأراضي حديثة الاستصلاح. بالاضافة الى أن معرفة المستأجرين سلفا بمشكلة تفتيت الملكية ... [illegible] الأراضي، وقلة ... بالزراعة ... [illegible]

ثانيا: قيام كل مالك بزراعة أرضه ... [illegible]

لم يجد هذا الاقتراح ... [illegible]

وقيـــام الجمعية باستغلال أراضى الأهالى المشتركين وزراعتها وتسويق المحاصيل وتوزيع العائد على الأعضاء .

لقد حظى هذا الاقتراح بتأييد الأهالى وذلك لاتفاقه مع قرار لجنة الزراعة والرى الذى يوضح ان الملكيات الفردية التى تقل مساحتها عن ٢٠ فدان يتم استصلاحها عن طريق جمعيـــة تعاونيـــة تمولها الدولة ، وتتولى هـــذه الجمعيـــات تحصـــيل التكـــاليف من المـــلاك ، وهـــذا ما يســـاعد أصحاب الملكيـــات الصغيرة فى الاستفادة من التعـــاون ، واستخدام أساليب الانتـــاج الحديثة ، مما يؤدى الى خفض تكاليف الانتـــاج ، وبالتالى زيادة عائدهم من أراضيهم .

ولذلك فقـــد كان مواجهة مشكلة تفتيت الأراضى الزراعيـــة من العوامل الهامة التى أدت الىقيام الجمعية التعاونية الزراعية فىاستغلال الأراضى بصورة جماعية وقيام مجلس ادارة من القرية يتولى الاشراف على ادارتها(١) .

وعندما بدأ تهجير أهالى النوبة عـــام ١٩٦٣ نتيجة لبنـــاء السد العالى ، والانتهاء من شق ترعة « أدندان » السفلى لتوفير المياه اللازمة لـــرى الأراضى الزراعيـــة لأهـــالى النـــوبة ، بـــدأ الاهـــــالى فى « قرية دار الســـلام النوبيـــة » فى المطالبـــات المتعـــددة لاستصلاح الأراضى الزراعية بالقرية ، الى أن تمت المقابلة بين أهالى القرية ولجنة الخدمات بمجلس الأمة والتى كانت مكلفـــة من قبـــل المجلس لتقصى الحقـــائق الخاصة بمشاكل النوبة المصرية عـــام ١٩٦٨ ، وبنـــاء على توصية لجنـــة الخدمات ، تم الاتصال بوزير الزراعة للاصلاح الزراعى بتـــاريخ ١٩٦٨/٥/٤ لمعاملة أراضى قرية دار الســـلام النوبية نفس المعـــاملة التى أتبعت فى تسوية أراضى الحيـــاض بالوجه القبلى وذلك

---

(١) محمد على حسنين : دراسة تحليلية للمزرعة التعاونيـــة بقرية دار السلام النوبية . بحث غير منشور فى التخطيط الزراعى . معهد التخطيط القومى . (١٩٧٥) . ص ٤٨ — ٦١ .

بأن تتولى المؤسسة المصرية العامة لتعمير الأراضى التابعة لوزارة استصلاح الأراضى اعداد الدراسات اللازمة لاعمال الاستصلاح واسناد تنفيذها لاحدى شركات استصلاح الأراضى والاشراف على عمليات التنفيذ ، وقد تم تدبير المبلغ اللازم لعمليات الاستصلاح وقدره ٨٠٫٠٠٠ ثمانون ألف جنيه .

وطبقا لقرار لجنة الزراعة والرى الذى تضمن أن الأراضى الزراعية التى تقل مساحتها فى حالة الملكية الفردية عن ٢٠ فدان يتم استصلاحها عن طريق جمعيات تعاونية تمولها الدولة وتتولى تحصيل تكاليف الاستصلاح من الملاك ، فقد استلزم ذلك قيام جمعية تعاونية تكون مسئولة عن تحصيل تكاليف استصلاح هذه الأراضى من أصحابها . وبذلك استقر الرأى على انشاء جمعية تعاونية زراعية تتولى زراعة الأرض فى مزرعة جماعية واحدة يتولى الاشراف عليها مجلس ادارة من أهالى القرية ، مع عدم مطالبة الملاك المساهمين فى الجمعية بنصيبهم من الارباح الا بعد ثلاثة سنوات انتاجية ، حتى تستطيع الجمعية تدعيم مركزها المالى والوفاء بالتزاماتها المالية .

وقد تم شهر الجمعية التعاونية الزراعية بدار السلام النوبية تحت رقم ٦٨٨ أسوان بتاريخ ١٤/٧/١٩٦٨ ، ونشرت لائحتها ونظامها الأساسى بالوقائع المصرية بالعدد رقم ٢١٢ بتاريخ ١٧/٩/١٩٦٨ .

وقد حدد قيمة السهم الواحد بمبلغ ٥٠٠ مليم وقد بلغ عدد المساهمين ٢٩٩ مساهما ، وبلغ عدد الاسهم ٥٥٠ سهما وبلغ رأس مال الجمعية عندما بدأنا تأسيسها وفقا لذلك مبلغ ٢٧٥ جنيها ، ثم ارتفع عدد المساهمين الى ٣٦٠ مساهما فى عام ١٩٧٠م ، وبلغ عدد الاسهم ٧٤٠ سهما ، وارتفع رأس المال فى الجمعية الى ٣٧٠ جنيها .

وتتبع الجمعية فى تكوينها وادارتها التنظيمات التى ينص عليها

قانون التعاون رقم ٥١ لسنة ١٩٦٩ ولائحتها التنفيذية بالقرار رقم ٦٠ لسنة ١٩٦٩ .

ولقد أسند عملية استصلاح الأراضى الزراعية بالقرية الى شركة وادى كوم امبو والتى بدأت العمل فى مارس ١٩٦٩م ، وفى ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٦٩ تم تسليم أول مساحة من الأراضى التى تم استصلاحها وتعميرها والتى تبلغ مساحتها ٢٢ سهم و ١٠ قيراط و ٣٩٠ فدان ثم توالى استصلاح هذه الأراضى حتى تم تسليم آخر الأراضى المستصلحة عام ١٩٧٢ ، ويسود القرية نوعين من الاستغلال للأراضى الزراعية هما : الاستغلال الفردى ، والاستغلال التعاونى .

أولا : استغلال فردى :

يعتمد الاستغلال القروى للأرض الزراعية على مباشرة مالكها بنفسه أو عن طريق استئجار العمال الذين يقومون بأداء العمليات الزراعية المختلفة نظير أجر معين ويتعامل أصحابها مع جمعية نجوع دراو الزراعية ، وقد كانت مساحة الأراضى الزراعية المستغلة

س ط ف ط ف

استغلالا فرديا تبلغ ٤ ١١ ٣٣٤ ، وصلت أخيرا ١٣ ٥٦٠

س ط ف

من جملة زمام القرية من الأراضى الزراعية البالغ مساحتها ٤ ٣٣ ٧٦٠ وأصبح عدد المالكين المساهمين بالجمعية ١٢١٢ فردا .

ثانيا : استغلال تعاونى :

وفى هذا النوع من الاستغلال يقوم ملاك الأراضى الزراعية بالمساهمة بأراضيهم فى الجمعية التعاونية الزراعية وتخضع هذه الأراضى للاستغلال الجماعى وتسويق المحاصيل وتوزيع العائد على المساهمين بالجمعية بالتساوى حسب المساحة المملوكة لكل عضو .

وفى عام ١٩٧٢ كان انتـــاج الأرض ١٦٠٠٠ر١٦ ألف جنيـــه وكانت المصروفات ١٦٠٠٠ر١٦ الف جنيـــه ، وفى السنة الثانية أرتفـــع الدخل الى ٢٣٠٠٠٠ر٢٣ ألف جنيـــه وحصـــل كل مشترك على عائد قـــدره (١٥) جنيهـــا عن الفـــدان الواحـــد .

وفى عـــام ١٩٨١ بلغ ايراد المزرعة ٨٠٠٠٠ر٨٠ الف جنيـــه وحصـــل كل مشترك على عائد قدره (٤٠) جنيهـــا عن الفـــدان الواحـــد مـــع الوضع فى الاعتبار تجنيب ١٥٠٠٠ر١٥ الف جنيه للتوسع الرأسى للمزرعة .

لقد بلغت مساحة الأراضى الزراعية التى ساهم بها أصحابها فى الجمعية التعاونية الزراعيـــة عندما بدأ تكوينها عـــام ١٩٦٨ والمستغلة

ط ف

استغلالا جماعيا ١٢ ٤٢٦ أخذت هـــذه المســـاحة فى التزايد نتيجة لانضمام أعضـــاء جـــدد والمساهمة بأراضيهم فى الجمعية حتى

ط ف

بلغت مســـاحة هـــذه الأراضى حاليا ١٢ ٥٦٠ من جملة زمام

س ط ف

القرية من الأراضى الزراعية والبالغ مســـاحتها ٤ ١٣ ٧٦٠ وارتفع عـــدد مالكيها المساهمين بالجمعية الى ١٢٦٢ فردا وقـــد يجمع بعض أصحاب الأراضى الزراعية بين النوعين السابقين من الاستغلال الزراعى فقـــد يكون مساهما فى الجمعية الزراعية بجـــزء من أرضـــه الزراعية ويقوم باستغلال الجزء الآخر استغلالا فرديا(١) .

وتتنوع المساحة الزراعية الخاضعة لنظـــام الاستغلال الجماعى الى ٣٥٠ فدان زراعات قصب سكر ، ٤٨ فـــدان زراعات موسيمية ٢٠ فدان فاكهة ، ٥ فدادين طرق ومصـــارف وباقى الأرض مازالت ضعيفة الأنتاج ، نتيجة لأرتفاع مستوى المـــاء فى الأرض وظهور التملح .

---

(١) محمد على حسنين : المصدر السابق ص ٥١

أهم المحاصيل المنتجـــة :

البرسيم ، القمح ، الشعير ، السمسم ، الفول السودانى ، قصب السكر ، وأنـواع الخضر ، الطماطم ، الباذنجـان ، الكـرنب ، القرنبيط ، البامية ، الكوسة ، الرجلة ، البطاطس •

الفاكهـــــة :

وفى عـام ١٩٧٣ تم شراء ١٠٠٠ فصيلة من أصناف نخيل البلح سكوتى ، جنديلة ، برتمود ، وزراعين على حـدود المشايات والطرق ، هـذا بخلاف أصناف نخيل البلح البذرية ، البلدية •

وفى عـام ١٩٨٢ خصصت مساحة ٢١٫١٨ فـدان زرعت شتلات الموالح والجوافة والتين ، بالاضـافة الى زراعة البطيخ ، كمـا زرع نصف فدان بالمـوز المغربى ، هـذا بجـانب زراعة جميـع المشيات والطـرق المزروعة بأشجار الكافور والكايا •

الانتـاج غير الـزراعى :

بدأ نشاط الانتـاج الحيوانى بالمزرعة منذ عـام ١٩٧١ من عائد بيـع الموالح وتربيـة الأغنام • وقـد بلغ عـدد المـاعز والأغنـام ١٢٠ رأسا أما عـدد الأبقـار فقـد وصل الى ٣٠ رأسا بجـانب ١٠ رؤوس من الجاموس • وتستخدم هذه المواشى فى العمليات الزراعية المختلفـة •

ويوجد بالمزرعة برجين للحمـام يستخدم مخلفاتهما فى عمليـات تسميد الأرض وأيضـا فى خلايـة للنحـل لانتـاج العسل النحـل ، وتبـاع منتجات أبراج الحمـام وخلايا النحل لاهـل القرية بأسعار مناسبة •

أثر التجربة على مجتمع القرية :

لقد تصور « الباحث » أن النظريات الاجتماعية التي جاءت حول المزارع التعاونية فى أفكار « سيسموندى » و « فورييه » ، وتجارب روبرت أوين ، و وليم تومسون ، وابرام كومب ، وموسى العلمي ، كانت هي مصدر الالهام لقادة وشيوخ دار السلام النوبية فى تهيئة المناخ الفكرى لهم فى تجربة المزرعة التعاونية . الا أن الواقع كان غير ذلك ، فلم يسمع أحدهم عن هذه النظريات أو تلك التجارب ، ولكن كان كل عملهم يكاد أن يكون مستلهما من خلال كتاب الله ، وسنة رسوله ، قولا وعملا . هكذا يقولون فى دار السلام النوبية .

والمدهش حقا أن المشكلات التى صادفت تلك القرية تكاد أن تكون مطابقة لتجارب موسى العلمى فى مشروع جمعية التنمية العربية بالنسبة لطبيعة أرضها غير الصالحة للزراعة ومشكلات ملوحة التربة وعدم كفاية مياه الرى . الا أن وجه الاختلاف كانت يتمثل فى العمل الفردى والعمل الجماعى .

فموسى العلمى اعتمد فى مشروعه على ايمانه الفردى ومساعدة المنظمات الرسمية دون مشاركة الجماعة المستهدفة ، ففشل . بينما أعتمد النوبيون فى مشروعهم على قرار الجماعة المستهدفة واقناعهم بالهدف وتأكيد ذاتهم التى استمدوها من تراثهم الحضارى ، فنجحوا .

ومما لا يدع مجالا للشك أن التجربة التى قامت بها قرية دار السلام النوبية فى عملية استغلال الأراضى الزراعية الموجودة بها ، قد جاءت بنتائج وآثار ايجابية على مجتمع القرية فى المجالين الاجتماعى والاقتصادى . فمن الناحية الاجتماعية أدت التجربة الى تغذية الروح القبلية وشعور الفرد بالانتماء الى قريته . وبالتالى الى مجتمعه وأصبح الفرد مرتبطا بالجماعة التى يعيش فيها وليس بمعزل عنها .

والواقــع ان ظهور القيــادة بين أهالى القرية وقدرتها على توحيد جهــود جماعتهــا جعلتهــم قــادرين على تخطى الصعوبات وتحقيق التطلعات .

أما من الناحية الاقتصادية فان استغلال الأرض بصورة تعاونية قــد حــل مشكلة تفتيت الأرض واستثمار عائدها ليعود على تنميتها ، وتوجيــه عائدها فى رفــع دخــل الأفراد المساهمين .

قائمة المراجــع

باللغة العربية :

دنيس هـ. رونج : علم السكان . ترجمة محمد صبحى عبد الحكيم . مكتبة مصر . القاهرة (١٩٦٧) .

سليم حسن : مصر القديمة جزء ٢ ، دار الكتب المصرية (١٩٤٠) .

مصر القديمة جزء ٤ ، دار الكتب المصرية (١٩٤٣) .

مصر القديمة جزء ٥ ، دار الكتب المصرية (١٩٤٣) .

صـدقى ربيع : النوبة بين القديم والجـديد . الدار القوميـة للطباعـة والنشر . القاهرة . (بدون تاريخ نشر) .

عبد الرحمن بن خلدون : كتاب العبر . القسم الأول . المجلد السادس . منشورات دار الكتاب اللبنانى للطباعة والنشر . (١٩٦٨) .

عبد المنعم أبو بكر : بلاد النوبة . دار القلم . القاهرة . (١٩٦٢) .

على زين العابدين : فن صياغة الحلى الشعبية النوبية . الهيئـة المصرية العامة للكتاب . القاهرة (١٩٨١) .

كمال حمـدى أبو الخير : النظـم التعاونيـة فى الدول المتخلفة . مكتبة عين شمس . القاهرة . (١٩٦٧) .

محمد ابراهيم بكر : المدخل الى تاريخ السودان القديم . المطبعة الفنية الحديثة . القاهرة (١٩٦٨) .

محمد على حسنين : دراسة تحليلية للمزرعة التعاونية بقرية دار السلام النوبية — (بحث غير منشور) معهد التخطيط القومى • (١٩٧٥)•

محمد عوض محمد : السودان الشمالى ، سكانه وقبائله • مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر • القاهرة • (١٩٥٦) •

وزارة الشئون الاجتماعيـــة : تهجير النوبة • تقرير منشور • (١٨ اكتوبر ١٩٦٣ — ٣٠ يونيو ١٩٦٤) •

سلسلة الألف كتاب : التغيير الاجتماعى والتنمية الاقتصادية • العــدد رقم (٦٦٧) مؤسسة سجل العرب • (١٩٦٧) •

باللغــة الأوربيــة :

Cole, G.H., A History of Socialist Thought. Vo., I — The forerunners 1789 - 1850. Macmillan & Co., Ltd., London, (1955).

Collingwood, R.G., The Idea of History, Agalaxy Book, New York, (1957).

Emery, B. Walter. Egypt in Nubia, Hutchinson & Co., Publishers, Ltd., London, (1965).

Gardener A., Egypt of the Pharahos, Oxford University Press, London. (1976).

Green, L., High Dam over Nubia, Shenvol Press, London (1982).

Kennedy, J.G., Nubian Cermonial Life-Studies in Islamic Syncretism and Cultural Change, The American University in Cairo Press, (1978).

Popenoe, D., Sociology, Englewood Cliffs., N.J. (1980).

رقم الايداع بدار الكتب المصرية ٢٦٢٥/١٩٨٤

المطبعة التجارية الحديثة ـ ت ٩٠٢٢٦٤